ترجمات في مجال

البحوث الإجرائية

- ما هو البحث الإجرائي: استخداماته وحدوده
- البحث الإجرائي التربوي الحي
- أسئلة وأجوبة حول البحث الإجرائي

مركز القطان للبحث والتطوير التربوي

2001

ترجمات في مجال البحوث الإجرائية

تأليف: جين ماكنيف
ترجمة: اسماعيل فقعاوي
مراجعة: أنس العيلة
الطبعة الأولى - 2001

مركز القطان للبحث والتطوير التربوي
مؤسسة عبد المحسن القطان - فلسطين

التصميم والإخراج الفني

الناشر للدعاية والإعلان

المحتويات

ما هو البحث الإجرائي: استخداماته وحدوده	**٧**
البحث الإجرائي التربوي الحي	**١٥**
أسئلة وأجوبة حول البحث الإجرائي	**٣٥**

توطئة

يسرنا في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي أن نقدم لكم هذه الترجمات المنتقاة من أعمال العالمة التربوية جين ماكنيف في مجال البحوث الإجرائية.

إن هذه المادة التي بين أيديكم، هي جزء من تصور شامل يعمل المركز على تجسيده، وهو تصور يهتم بإضاءة المنجز التربوي الإنساني أمام المعلم العربي بعامة والمعلم في فلسطين بخاصة، ونهدف من وراء ذلك إلى تعميق التفاعل الفكري مع ما أنجز في الحقل التربوي عالميا وخصوصا فيما يتعلق بالبحث التربوي الإجرائي.

إن هذه المادة المترجمة التي نضعها بين أيديكم الآن تترافق مع زيارة د. ماكنيف إلى فلسطين ومشاركتها في أعمال اليوم الدراسي الذي يعقده المركز في مجال البحوث الإجرائية.

آملين أن نتمكن في المستقبل القريب من نشر هذه المواد مع غيرها ضمن برنامج ترجمة الأدب التربوي.

د. فؤاد المغربي

مدير المركز

ما هو البحث الإجرائي: استخداماته وحدوده*

What Action Research is: Its Uses and Limitations

مقدمة:

البحث الإجرائي هو الاسم الذي يطلق على حركة تزداد شعبية في البحث التربوي. فهو يشجع المعلم على التفكير في ممارسته من أجل رفع مستوى نوعية التعليم، من أجل المعلم ذاته، ومن أجل طلابه. إنه نوع من بحث تأمل الذات المستخدم حالياً في تطوير المنهاج المعتمد على المدرسة والتطوير المهني، وتطوير الخطط المدرسية، وهكذا وإلى مدى كبير فهو يربط المعلمين كمشاركين فاعلين في عمليتهم التعليمية.

والحركة متنامية الموثوقية وينظر إليها الآن في المجتمعات التربوية كبديل حقيقي للطريقة التقليدية في البحث التربوي المعتمدة على النظرية. فهذه الطريقة التقليدية تختزل النظرية التربوية والبحث الى الحقول المنفصلة من علم اجتماع وعلم نفس وتاريخ وفلسفة تربوية. أما البحث الإجرائي فإنه التعليم كممارسة متكاملة ناظراً للمعلم في الصف كأفضل حكم على شمولية تجربته التعليمية. إنه أسلوب فعال في جسر الهوة بين النظرية والتطبيق؛ ذلك لأن المعلمين هنا يُشجعون على تطوير نظرياتهم الشخصية الخاصة بهم نحو التعليم من خلال ممارستهم الصفية.

خصائص البحث الإجرائي: Characterization of Action Research

ينمو الأدب الخاص بالبحث الإجرائي نمواً سريعاً. وفي ذات الوقت الذي ينمو فيه البحث الإجرائي فإن عدد التعاريف والتشخيصات للبحث الإجرائي تتزايد أيضاً. فالبحث الإجرائي التعليمي قد يُرى بطريقة أو بأخرى كتغطية أو «مظلة» لما يجري في الصف، عندما يقرر معلم ما أن يغير وضعاً مسلماً به ويميل لأن يصبح باحثاً في ممارسته الصفية (مثلاً، Hustler et al, 1986)؛ أو قد يرى كوصفة أو مخطط لعمل المعلم (مثلاً Elliott, 1981).

* المصدر: McNiff, Jean. (1998) Action Research: Principles and Practice. Routledge. New York

يصف المنظور الأول النواتج أو المخرجات عندما يقرر المعلم التدخل في ممارسته. إن الأدب يقدم العديد من التعاريف لهذا التدخل مثل «البحث الصفي» (Hopkins,1985) و «بحث تأمل الذات» (Kemmis, 1982) و «البحث الإجرائي» (Hustler et al, 1986). وبهذا المعنى فإنه لا يوجد تعريف جامع شامل لما يجري. إن البحث الإجرائي يُنظر إليه كطريقة في تشخيص مجموعة واسعة من الأنشطة المصممة لتحسين نوعية التعليم؛ إنه أساساً طريقة انتقائية في برنامج تأمل ذاتي يهدف إلى التحسين التعليمي. والمنظور الثاني يحاول تحديد معايير لهذه الأنشطة؛ لصياغة أنظمة، تلك التي ستفسر التحسينات التي هي نتاج لبرنامج التأمل الذاتي. وبهذا المعنى فالمصطلح بحث إجرائي هو مصطلح يستخدم لوصف أساليب وتقنيات.

تتوفر العديد من التعاريف في الأدب حول البحث الإجرائي (راجع مثلاً Rapoport, 1970 Ebbutt, 1983; Elliott, 1981). وربما كان التعريف العملي المقبول على نطاق واسع ذلك الذي قدمه (ستيفن كيميس) من جامعة (ديكن) سوية مع (ويلف كار) من كلية الجامعة في شمال (ويلز):

> **البحث الإجرائي هو شكل من بحث التأمل الذاتي يقوم به مشاركون (معلمون أو طلاب أو مسئولون، مثلاً) في مواقف اجتماعية (من ضمنها التعليمية) من أجل تحسين المعقولية والعدالة لـ (أ) ممارستهم الاجتماعية أو التعليمية (ب) فهمهم لهذه الممارسات و (ج) للمواقف و«المؤسسات» التي تنفذ فيها هذه الممارسات.** (Carr and Kemmis, 1986).

وكأي حركة ناشئة فإن التفسيرات ستتعدد وربما تزداد. والتركيز الرئيس للبحث الإجرائي هو في الصفوف والمدارس، ولكن لتشجيع المعلمين كي يصبحوا باحثين منشغلين في ممارستهم وليروا أنفسهم كباحثين (Stenhouse, 1975). ويضع (Walker, 1985) هذه النقطة في آخر جملة من كتابه عندما يقول «بذاك المعنى، فالكتاب يبدأ هنا، عند النقطة التي يصبح فيها القارئ باحثاً فعالاً». تلك هي بالضبط النقطة في هذا الكتاب: لإيضاح الموضوعات؛ لتقديم بعض الصور؛ ولتشجيع المعلمين كي يصبحوا باحثين في صفوفهم.

مبررات البحث الإجرائي: Rationale for Action Research

إن الأساس الاجتماعي للبحث الإجرائي هو الانخراط، أما التحسين فهو الأساس التربوي، إن عملياته تتطلب التغيير. فالبحث الإجرائي يعني **العمل** لكل من النظام محط الاهتمام وللناس المنخرطين في ذلك النظام. والنظام قد يعني أي هيئة اجتماعية إنسانية – مصانع، خطوط طيران، خدمات، مدارس – والناس تعني جميع المستخدمين وليس فقط المديرين، لأنه في النظام الديمقراطي أصغر جزء يؤثر في الإطار الكلي للمجموع. وضمن النظام قد يتحدد جانب ما كمنطقة إشكالية. فقد يركز معلم ما، مثلاً، على جزء محدد من ممارسته الصفية. ومن الناحية الأخرى فقد يجد أن إجراءاته في حل المشكلة سيكون لها توابع على الجوانب الأوسع من مجتمع المدرسة وموظفيها،

(فجون م.) كان مهتما بظاهرة وجود مشاكل انضباطية في أحد الصفوف، وجد أنه يزيد الوضع سوءاً باستمراره مع طلابه وهم على حال سلوكهم السيئ، وقد اكتشف بأنه إذا ما تبنى نمطاً بديلاً فإن المشاكل تختفي. وقد تضمن نمطه المعدل؛ المفاوضة وإرساء قواعد للسلوك في الصف يتفق عليها الجميع ويتقيدون بها . ومن ثم فقد تشجع لاستكشاف الإمكانيات والتنقيحات لمثل هذا النمط في صفوفه الأخرى وليسجل مشاركة الزملاء الآخرين. وبدورهم فقد لمس بعض الزملاء فوائد النمط الجديد وقرروا تجريبه لصالحهم. وقد تبادلت مجموعة المعلمين الأفكار بشكل مستمر، متعلمين من بعضهم البعض في بيئة من الدعم العلني لبحثهم المنهجي.

إن البحث الإجرائي كأسلوب لاكتشاف وحل الموضوعات ذات الإشكالية من الممكن أن يطبق بدرجة متساوية على البحوث من النوع الشامل. ف (كورت لوين) الرجل الذي جعل التسمية شائعة، انشغل هو نفسه في تحسين العلاقات في أوضاع صناعية. لقد رأى هذا النوع من الإجراء التشاركي أكثر فعالية في حل مشكلات العلاقات الإنسانية المتبادلة بكثير من عملية مركبة (مهندسة) مفروضة يُتوقع أن يحشر الناس في إطارها. فالاسفين أو الأوتاد المربعة «square pegs» لا تدخل في حفر دائرية. لقد رأى (لوين) هذه الفكرة الانخراطية والتشاركية كطريقة لملاءمة الأوتاد المربعة أو ربما تغيير الحفر الدائرية (المقصود هنا أن البحث الاجرائي التشاركي هو أكثر فعالية في حل مشاكل انسانية من عملية فرض قوانين محكمة البناء والتي يتوقع من خلالها أن يتواءم معها الناس). فالملاءمة والتغيير كلها جزء من العملية الديمقراطية التي تسمح بالفروق الفردية والمشاهد الإبداعية؛ فحقاً الأفراد أنفسهم سيشكلون البيئة. إن عمل البحث الإجرائي سواء بحجم صغير أو كبير يتضمن تغييراً في حياة الناس، وبالتالي في النظام الذي يحيونه.

إن هذه النقطة تُبرز أحد الأسئلة المتعلقة بالبحث التربوي عموماً: فالبحث الإجرائي يحاول الإجابة على المشكلة «المرئية وغير المرئية». وهذه هي النقطة بأن الدراسة، استناداً إلى نظرة الباحث، من الممكن أن توزع على مستويات مختلفة من التعقيد الاجتماعي والتعليمي. فعملية التربية والتعليم قد يُنظر إليها على أنها مفهوم اجتماعي كلي يعمل كإطار ثقافي للفرد، وقد يُنظر إليها من زاوية «المركز–التابع» على أنها على علاقة مع تطور الأفراد في المجتمع. وأساليب البحث الإجرائي تطبق بدرجة متساوية على البحوث الكبيرة وأيضاً الصغيرة، آخذةً بوجهة النظر القائلة بأن الفرد قد يعطي تفسيرات لتطوره الوظيفي والشخصي؛ وبالتالي فإن إجراءاته المعتمدة ستساهم في تشكيل مجتمع مستقبلي.

وفي مجال التطبيق الصفي، فالبحث الإجرائي هو طريقة لتحسين التعليم من خلال التغيير عبر تشجيع المعلمين لأن يكونوا على وعي بممارستهم وليكونوا ناقدين لتلك الممارسة وأن يكونوا مستعدين لتغييرها . إنه تساهمي من حيث أنه يشغل المعلم في حقله المعرفي الخاص، وهو تعاوني من حيث أنه يشغل أناساً آخرين كجزء من بحث تشاركي. إنه بحث **مع** أكثر مما هو بحث **على**.

إن هذه النقطة هامة جداً. إن المفاهيم العامة حول البحث التربوي هي غالباً مشوهة وخرافية. إن

الفكرة السائدة حول الطريقة التقليدية هي أن الباحث، الخبير، يجري جميع البحث على أناس آخرين. والمعلمون غالباً حذرون من مثل هؤلاء المنصبين أنفسهم خبراء، الذين يستخدمون المدارس والطلاب والمعلمين «كطُعم» لجمع المعلومات لتوفير النتائج التي «قرروها سلفاً». والمفترض أن يكون لدى الباحث فرضية يريد اختبارها – أو فكرة واضحة إلى حد ما كهدف له – وهو يجري التجارب على الآخرين لتأييد فرضيته. إن هذه الطريقة خطيرة عندما يكون البحث متعلقا بالناس. إنها جيدة تماماً إذا ما كان الموضوع يتعلق بموضوعات يمكن التحقق منها موضوعياً. إنه لمن الحمق، مع ذلك، الحديث عن المجموعات الضابطة عندما تكون تلك المجموعات مكونة من البشر. وبرغم وجود العديد من المجالات من السلوك الإنساني التي يمكن التنبؤ بها بدرجات متفاوتة – والعديد من هذه السلوكيات هي في البيئة التعليمية – إلا أن الإبداعية واللاتنبئية من المواصفات الجوهرية للإنسانية. فالناس فيما يبدو يدهشون لسلوكهم عندما ينظرون إليه كباحثين خارجيين (بمعنى أن سلوك الانسان غير متنبأ به، وهو كثيرا ما يتفاجأ من أعماله عندما يراها مرة أخرى).

افترض، مثلاً، أن معلماً ما أراد أن يعرف ما إذا كانت طريقة أخرى لوقت الكلام الصفي سوف تؤثر على أداء الطلاب. فإذا ما شجع الطلاب على أن يطرحوا أسئلة بحرية أو يعملوا زوجياً أو في مجموعات بدلاً من الاستماع أولاً لشروحاته أو أن يقرؤوا كتباً، فهل سيتقدم مستوى فهمهم لموضوع الدراسة؟ وتقترح النظرة التقليدية للبحث إعداد مجموعة تجريبية وقياس تقدمها بوسائل الاختبارات. وسيتم مقارنة نتائج هذه الاختبارات مع تلاميذ المجموعة الضابطة. واستناداً إلى نتائج الاختبارات فإن المعلم قد ينجح أو يفشل في طريقته الجديدة. ومن المهم أن بعض المعلمين يجدون أنفسهم غير قادرين على حشر أنفسهم في بنية من البحث التربوي مفروضة عليهم، ومن ثم فهم يشعرون بأنهم قد فشلوا بسبب عدم وجود الملاءمة. إن البحث الإجرائي يتبنى وجهة النظر القائلة بأن الخطأ ليس في الملاءمة، ولكن في المفهوم الكلي بأن الناس (موضع الدراسة) سيوزعون قصراً في فئات وأنظمة وسيستجيبون بحسب نظرية الأجزاء العاملة.

إن هذه العقلية الآلية هي الأساس في وجهة النظر التقليدية في البحث التربوي. إنها مؤسسة على أسلوب يحاول أن يقيس ويعطي إجابة كمية وكأن البشر يمكن التنبؤ بسلوكهم تماماً. إن البحث الإجرائي يحاول أن يفهم المواقف من زاوية مختلفة تماماً. فإذا ما كان هذا الأسلوب [التقليدي] يرى أن وظيفته هي حل المشكلات فإن البحث الإجرائي يمكن رؤيته كطارح للمشكلات. إنه بحث عن الأسئلة الصحيحة الملائمة للمواقف التعليمية وإجاباتها أيضاً.

ففي المثال يرغب المعلم أن يطرح أسئلة حول ممارسته. **لماذا هو غير راض عن الوضع الحالي؟ ما الذي سيغيره؟ كيف سيلاحظ ردود الأفعال؟ كيف سيقيّم ردود الأفعال هذه؟ وكيف سيغير ممارسته كي يلائم استنتاجاته؟** إنها أسئلة البحث التربوي ذات الأهمية، الأسئلة التي يكون المعلم على استعداد لطرحها على نفسه حيال ما يجري في صفه، واستعداده للإجابة عليها بنزاهة وشرف مع الأخذ بعين الاعتبار النتائج المحتملة. إن هذه النتائج بالتأكيد ستتضمن التغيير، ولكن التغيير الذي سيقود إلى التحسين. وإن ذلك التحسين لن يحدث إذا لم يكن المعلم

في المقام الأول على وعي أو إحساس بمستوياته المهنية. إن البحث الإجرائي هو أداة تستخدم طواعية من قبل معلمين جيدين لتحسين ممارستهم.

ومع ذلك، فإن أحد التحديات التي تواجه البحث الإجرائي هي ماهية المفترضات التي يجب أن يقوم بأدائها المعلمون الجيدون على أية حال؛ وهذه هي أن يكونوا على وعي مستمر بأدائهم الصفي وأن يحاولوا تحسين تلك الممارسة. ويقول المتشككون هذا ليس بحثاً ولكن هذا هو التعليم الجيد فقط. إن البحث الإجرائي يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو نفسه وسيلة لتحسين الوضع التعليمي/التعلمي. إن البحث الإجرائي ليس فقط تعليماً. إنه إدراك ونقد لذلك التعليم، واستخدام هذا الوعي الناقد للذات كي يكون منفتحاً على عملية التغيير والتحسين للممارسة. إنه يشجع المعلمين لأن يصبحوا مغامرين وناقدين في تفكيرهم، من أجل تطوير نظريات وتفسيرات لممارستهم، ومن أجل تقديم تفسير منطقي لادعاءاتهم المعلنة في المعرفة المهنية. إن هذا **البحث** المنهجي الذي يتم **جعل تحققه علنيا** « Inguiry Made Public» هو الذي يميز النشاط كبحث.

(جانيت م.) مثلاً انشغلت في إدخال خطط تعليم شخصي واجتماعي إلى مدرستها. وهذا مجال من المنهاج مشبع بالقيم، وأي تنمية لسلوك الأطفال واتجاهاتهم تتحدى أية عملية للقياس الكمي. وتتساءل جانيت «كيف يمكنك قياس ما إذا كان الأطفال قد أصبحوا أكثر إحساساً أو أكثر إدراكاً أو أكثر تسامحاً؟ كيف يمكنك قياس أنك أصبحت أكثر لطفا؟ لقد ابتدأت بحثها في إطار من القواعد، وكانت النصيحة التي زودها بها مرشدها أن تجري اختباراً قبلياً ثم تعلم المساق ثم تجري اختباراً بعدياً. والمعلومات الإحصائية التي تتلقاها من الاختبارات سوف تبين مقدار «التقدم» الذي «حققه» التلاميذ. لم تكن هذه الاستراتيجية ممكنة التطبيق بتاتاً استناداً إلى احتياجات (جانيت)، وأيضا، غريب عما يعنيه مفهوم التعليم الشخصي والاجتماعي لديها. فبالنسبة لها التعليم الشخصي والاجتماعي هو مفهوم تربوي كلي يتضمن كل جوانب المنهاج وليس «المساق الدراسي» فقط، وإن تقدم التلاميذ لا يمكن رؤيته على أنه تقدم خطي من مجرد وضع معايير مثل (1) **مؤكد**، (2) **مقبول**، (3) **مؤدب**، ولكنه يشتمل على التزامهم الذاتي كأسلوب في الحياة، إنه ثابت باطني أكثر مما هو ظرفي يستخدم ثم يترك. لكن في نفس الوقت لم تقتبس (جانيت) إثباتات إحصائية بأن التلاميذ كانوا قد «انتفعوا» أو استفادوا من طريقتها، كيف لها أن تفسر ادعاءها بمعرفتها بأنها والتلاميذ كانوا قد استفادوا كأشخاص خلال عملهم معا؟ كيف لها أن تجيب زملاءها الذين سيقولون «ولكن هذه «التحسينات» الحادثة لدى التلاميذ ربما كان من الممكن أن تحدث بدون تدخلك».

البحث الإجرائي يصر على إعطاء تفسير منطقي بشأن الادعاءات بالمعرفة المهنية. وبإمكان (جانيت) أن ترد على أسئلة التحدي قائلة: «حقاً، لكن إذا أخذتم ممارستي بعين الاعتبار؛ فإنني أتمنى أن أبين بفاعلية أنها **فعلا** حدثت **معي**. إنني مستعدة لأن أريكم إثبات موثق يوضح كيف أنني وجدت ممارستي غير مرضية وكيف فكرت بشأنها وغيرتها بحسب ما يلزم خلال المناقشة مع الآخرين. ثم إنني أستطيع أن أريكم إثباتا على شريط فيديو وشريط تسجيل، حيث يقول التلاميذ أنهم تغيروا بسبب انهماكنا وعملنا المشترك. ومن ثم انتم كزملاء يمكنكم الموافقة أو عدم

الموافقة معي بأنني انتقلت من حيث كانوا كما يشاهد على الفيديو في كانون الثاني الماضي إلى حيث ما هم عليه الآن في تموز، ونستطيع نحن أن نحدد معا معايير ستوافقون عليها لتوضيح الانتقال. إن هذه الخبرة المشتركة، وهذا الحوار المتبادل الداعم، هو الفعل البحثي الذي يأتي بالناس معا كمكتشفين لقدراتهم بدلاً من دفعهم إلى الاغتراب كمنفذين ودمىً.

البحث الإجرائي هو بحث منهجي. إنه كما يطلب ستنهاوس «بحث منهجي يتم الاعلان عنه». إنه ليس نشاطا عشوائيا منشأً لغرض خاص كالأنشطة التي تميز حياتنا اليومية، برغم أنه يلائم ضمن طريقته عناصر المفاجأة والعشوائية تلك الخاصة باللاتنبئية والإبداعية. إن البحث الإجرائي رائع في ذاته. إنه يتضمن دائرة التأمل الذاتي للتخطيط، **الفعل، الملاحظة، التأمل، إعادة التخطيط**. إنه يتطلب من المعلمين أن يكونوا على إدراك جاد لمعنى العملية ولتنقية إدراكاتهم من أجل تفسير تلك العملية. وبعيداً عن الخصوصية والغموض، فإن البحث الإجرائي يرفع إلى مستوى الوعي كثيرا من ممارسات المعلمين الجيدين والتي كانت مجرد ممارسات على مستوى الحدس. إنه يجعل المعلمين قادرين على تحديد ممارستهم والإمساك بها بطريقة إنسانية داعمة وناقدة في ذات الوقت. وكما قال أحد المديرين عن طاقمه: «إنه يحرر المعلمين من تحيزاتهم –حكمهم المسبق على الأمور– ويسمح لحدسهم بالإرتقاء إلى مستوى الوعي».

البحث الإجرائي .. استخداماته وحدوده: Uses and limitations

البحث الإجرائي، في ذات الوقت، ليس هو الحل الوحيد لأي ولكل مشكلة تعليمية. إن هناك بعضاً من مجالات الاهتمام التي قد يناسبها أسلوب بديل، مثل هذه الموضوعات معتمدة على التحليلات الإحصائية أو الدراسات المقارنة، حيث أن السلوكيات اللاتنبئية الإنسانية ليست هي الموضوع، أو حيث المقارنة المباشرة بين الأوضاع التمهيدية والضابطة هي المطلوبة. أما بالنسبة للموضوعات الخاصة بالعلاقات الإنسانية – مثلاً، تأسيس علاقات المساعدة وأنماط التعليم المختلفة وتقييم ملاءمة النصوص التي تحتاج الى تحكيم – فإن البحث الإجرائي هو استراتيجية مفيدة جداً. إنه يستطيع اتخاذ طريقة متحررة بشكل واسع لمثل هذه الموضوعات. بواسطته يمكن تنفيذ بحث بطريقة إنسانية متخذاً من علاقة واحد لواحد بين الأشخاص نقطة المركز له. أما بخصوص تلك البحوث المعتمدة على التحليل الصارم للبيانات، فإن البحث الإجرائي يكون فيها غير ملائم. ومن أجل ذلك فإن الطرائق الإحصائية ضرورية.

لقد قيل مثلاً (Reason and Rowan, 1981)، بأن هذا «التيار البحثي الجديد أرق وأكثر أنثوية في أسلوبه». «إن نظاماً جديداً من الرقة» يظهر على غلاف كتابهم. إن صلاحية هذا الأسلوب تقع في مهارات الباحث، إنها ذات علاقة بالشخصية أكثر من الأسلوبية كونها مجموعة من الطرائق (صـ 244). إن هذا لا يتضمن أن نشاطات وصيغ البحث الإجرائي غير متقنة وضعيفة التخطيط. إنه يعني بدلاً من ذلك أن البحث الإجرائي يتخذ كقاعدة فلسفية له وعياً عالياً واحتراماً لكلية الأفراد، هذه الصفة كثيراً ما تكون مفقودة في الطرق التقليدية القائمة على النظريات في البحث التربوي. وبرغم أنه من البين أن البحث الإجرائي ليس دائماً الإجابة لحل المعضلات التعليمية، إلا

أن قاعدته الإنسانية تشكل مساهمة في استخدام التقاليد التجريبية المعتمدة على الإحصاء والنظريات الأخرى.

وإنه لمن الصواب هنا صياغة نقطتين. أولاً: ليس للنظرية أية قيمة إن لم يتم عرضها بشكل يبين أن لهذه النظرية تطبيقات عملية. إن عمل Habermas (1979)، و Gadamer (1965)، و Schutz (1972) تجعل هذه النقطة أساسية.حيث أنه من طبيعة الحياة الانسانية أن تحول الأفكار إلى أفعال. وهكذا بينما النظرية التجريبية (مثل الطريقة المعتمدة على الإحصاء) المستخدمة لموضوع تربوي قد تكون هي الأكثر فائدة، فإن النظرية المتولدة يجب أن تختبر بالممارسة ويجب أن تكون بياناتها قابلة للمقارنة والتحليل، ويجب اتخاذ الفعل على ضوء التحليل. وكل هذه الخطوات ستجرى بواسطة أناس إما عن بعد كما في حال برمجة الكمبيوتر المشغل للآلات، أو على قاعدة شخصية خاصة كمناقشة التحليل ومضامينه. وهناك شعار آخر يظهر لدى Reason and Rowan (1981) هو «لا يمكن مطلقاً أن يكون البحث محايداً». نعم، تطبيقات النظريات التجريبية هي بعيدة عن الحيادية، فأناس هم الذين يتخذون القرارات بشأن الاختيارات والتطبيقات، وأناس هم الذين تتأثر حياتهم بهذه القرارات. إن البحث التربوي الذي يقود إلى نظرية تربوية تطبيقية ذات مضمون، لا يمكن رؤيته في فراغ خال من الناس وإلا ليس له من داعٍ.

النقطة الثانية أن البحث الإجرائي هو طريقة لحل المشاكل التربوية التي نشأت من نظريات سابقة. إنه لا يرفض تلك النظريات على أنها خاطئة. إنه يحول التركيز وزاوية الرؤية. يوضح Kuhn (1962) أن ولادة طريقة جديدة كثيراً ما تكون مصحوبة بالإحساس بوجود أزمة في التيار السائد. فالنظريات لا تولد وتقتل ولكن قد تتحول بالتدريج داخل أطر جديدة. وتكمن روعة البحث الإجرائي أنه يمتلك في باطنه القدرة على احتواء توجهات سابقة. والسبب في ذلك ببساطة أن تركيزه يقع على الباحث بدلاً من طرائقه. إن بصيرته أولاً وفهمه هو الذي يتقدم إلى الأمام بواسطة انغماسه في بحثه.

وباختصار، على الرغم أنه من العدل القول أن طرقاً أخرى قد تكون ملائمة لموضوعات تربوية معينة، إلا أن مبادئ البحث الإجرائي قد تستخدم من قبل الباحث لينقل إجراءاته في البحث إلى الأمام. وبتبني وجهة نظر إنسانية نحو طبيعة البحث التربوي يحول مهمته إلى بحث إنساني. إنه يسلح نفسه بعقلانية أكبر من أجل اختيار قاعدته الفلسفية وطرائقه ومن أجل تطبيق الحكمة في تحليله للبينات. والأكثر أهمية، أنه يقبل كمبدأ أن أي تطبيق مقترح للتحليلات يؤثر على حياة أناس حقيقيين. وبهذه الطريقة يصبح البحث سياسياً. إن البحث الإجرائي يبرز الحاجة إلى مشاركة ديمقراطية في المرحلة المضامينية من البحث التربوي، مهما كانت الاستراتيجية أو النظرية المفضلة.

الخلاصة: Conclusion

إن البحث الإجرائي يتضمن تبني انفتاحاً مقصوداً على تجارب وعمليات جديدة وهكذا فإنه يتطلب بأن يكون العمل في البحث التعليمي تعليمياً في ذاته. وعبر انخراطهم الواعي في تطور تعليمهم الخاص، فإن المعلمين ينتفعون على المستويين المهني والشخصي؛ وإن هذا الالتزام الشخصي هو الذي يهم في عملية البحث الإنساني. فبدون الالتزام الشخصي، فإن التعليم لن يكون أكثر مما يظهر في المنهاج والتعلم كنتاج للمجتمع المدرسي. لأنه إذا ما كنا كمعلمين نرغب حقاً بالوفاء بواجباتنا كمربين، فيجب أن نقبل المسئولية في تعليم أنفسنا أولاً.

البحث الإجرائي التربوي الحي*

Living Educational Action Research

إن هذا الفصل يعالج الموضوعات الأساسية المتعلقة بعملية البحث الإجرائي. والعديد من هذه الموضوعات تنطبق على البحوث عموماً وليس فقط على البحث الإجرائي. ولكن البحث الإجرائي التربوي يتميز بخصائص فريدة أيضاً تجعله مختلفاً عن البحوث الأخرى. وهذا الفصل سيساعدك على توضيح ماهية البحث الإجرائي وكيف أنه مختلف عن البحوث الأخرى.

محتويات الفصل:

- ما هو البحث الإجرائي؟
- فيمَ يتشابه أو يختلف البحث الإجرائي مع البحوث الأخرى؟
- ما هي الملامح الرئيسة لعملية البحث الإجرائي؟

* المصدر: McNiff, J., et al (2000) *(You and your action research)*, Routledge, London.

ما هو البحث الإجرائي؟ What is action research?

إنه نوع واحد من البحوث. وهناك العديد من الأنواع الأخرى. وكشخص معني بالقيام بمشروع بحث فإنك محتاج لأن تكون على وعي بأن هناك طرقاً مختلفة لعمل البحوث لذا تستطيع أن تعدل اختيارك لعمل بحث إجرائي.

1. بحث المهنيين: Practitioner research

البحث الإجرائي هو نوع من بحوث المهنيين والذي يمكن استخدامه لمساعدتك في تحسين ممارساتك المهنية في أنواع شتى من أماكن العمل. وببساطة فإن بحوث المهنيين تعني بأنها تؤدى بواسطة الأفراد أنفسهم بشأن ممارساتهم. فمثلاً، واحدة منا (جين) منذ فترة تعمل في مدرسة مع مجموعة من المعلمين والآباء **سابرين** سوية كيف يمكنهم إعداد «لائحة سلوك» لجمعية البيت – المدرسة. وبدلاً من كتابة اللائحة ببساطة، فقد قرروا رؤية فيما إذا كانوا قادرين على ممارسة اعتقاداتهم أولاً ومن بعد كتابة وصف لما فعلوه واستخلاص اللائحة من ملاحظة ممارستهم. وقد عمل الآباء والمعلمون والأطفال سوية على هذا المشروع في غرف المعيشة والفصول كذلك. وقد تم فك غموض مفهوم البحث لأنهم بنوا سوية فهماً عن البحث كأداة لتحسين نوعية حياتهم خلال بيئاتهم الاجتماعية.

وإننا نعتقد بأن البحث الإجرائي المنفذ جيداً يمكن أن يؤدي إلى:

- تطورك الشخصي.
- ممارسة مهنية أفضل.
- تحسينات في المؤسسة التي تعمل فيها.
- تقديمك مساهمة لخير النظام الاجتماعي.

إن هذه ادعاءات قوية ويجب أن لا تؤدى على استحياء. إننا نأمل أن هذا الفصل سيساعدك على رؤية كيف بإمكانك أداؤها بثقة.

2. ممارسة مهنية جيدة: Good professional practice

لربما تقول بأنك منذ السابق تقوم بعمل بحوث إجرائية، بمعنى أن العديد من الجوانب المهنية الجيدة وطرائق العمل التي تستخدمها سابقاً هي أشكال من البحث الإجرائي. وربما تفكر كثيراً في ممارستك وتغيرها في ضوء ما تتعلمه. إننا نتعاطف كثيراً مع وجهة النظر هذه، وسوف نوضح بأن البحوث الشخصية غير الرسمية المتبناة من جانب مهنيين جيدين هي أسس سليمة لأساليب أكثر دقة مستخدمة من قبل باحثين إجرائيين ناضجين. ومع ذلك فإن العديد من البحوث غير الرسمية مهتمة بمواضيع فنية لا تدعو المهنيين للانشغال في مساءلة ممارستهم الأصلية؛ والفرق الكبير هو أن نتائج هذه البحوث غير الرسمية لم توضع في الميدان العام ولهذا السبب لم تكن تنفتح حقيقة للاختبار الجاد. والممارسة المهنية الجيدة تؤكد الإجراء إلا أنها ليست دائماً تتفحص دوافعه. وكي يكون بحثاً إجرائياً يجب أن يكون تطبيقاً أصبح عادة بدلاً من تطبيق [فقط]. والتطبيق الذي أصبح عادة هو إجراء مطلع ملتزم، يطور المعرفة أكثر من إجراء ناجح

فقط. إنه مطلع لأن نظريات أناس آخرين مأخوذة في الحسبان. إنه ملتزم ومقصود استناداً إلى قيم مجربة ويمكن البرهنة عليها. إنه يؤدي إلى معرفة من وعن ممارسة تربوية.

3. الإجراء والبحث: Action and research

إن أسهل وسيلة لفهم البحث الإجرائي هي أن تتفحص بعناية كلمتي العنوان. فعندما استمطرنا عقولنا حول كلمات ذات علاقة بالإجراء والبحث وصلنا إلى الكلمات التالية. فكر بكلمات يمكنك أن تضيفها.

كلمات الإجراء	كلمات البحث
عمل	استقصاء
تدخل	حياد
مقصود	حريص
ملتزم	منظم
ذو دافعية	إثبات
محرك للعواطف	منهجي

إن هناك عدداً كبيراً من تعاريف البحث الإجرائي تؤكد جوانب متعددة يعتقد مؤلفون معينون بأنها هامة، برغم أن معظمهم يقبل علاقة الكلمات المكتوبة أعلاه. لقد أخذنا شكلاً واحداً **مخطط البحث الإجرائي** الذي ألفه ستيفن كيميس وروبين مكتاجارت لمساعدة الأشخاص الذين بدأوا للتو باستخدام البحث الإجرائي. إنهما يقولان:

> **«إن ربط المصطلحين إجراء وبحث يبرز الملمح الأساسي للأسلوب: تجريب الأفكار في الممارسة كوسيلة للتحسين وكوسيلة لزيادة المعرفة...»**
> (Kemmis and McTaggart, 1982).

إن هذا التعريف يؤكد أهمية الإجراء. وإننا نوافق على أن الإجراء يحفز البحث وانه القوة الدافعة. إن الباحثين الإجرائيين يميلون لأن يكونوا ملتزمين وغالباً متعاطفين بشأن ما يفعلون. وإن عدداً من المنشورات الحالية قد رحبت بأهمية المشاعر (Whitehead, 1995: 630;Dadds 1995:632)، أو أظهرت الحاجة إلى الوعي بالجوانب الوجدانية التي تمنح المعرفة للممارسة (McNiff and Colins, 1994; Laidlaw, 1996). ويميل الباحثون الإجرائيون إلى أن يعملوا بقصد على تطبيق أفكار تأتي من القيم الراسخة عميقاً والتي تحفزهم إلى التدخل. إن التأكيد على الإجراء واضح أيضاً في عبارة جون إليوت القائلة:

«البحث الإجرائي هو بشأن تحسين الممارسة أكثر مما هو بشأن إنتاج المعرفة...» (Elliott, 1991).

إن تعريف إليوت ممتع كونه يبدو على اختلاف مع مقتبس كيميس ومك تاجارت. فبينما الآخران يقولان أن البحث الإجرائي وسيلة لزيادة المعرفة، يميز كيميس بين تحسين الممارسة وإنتاج المعرفة. وفيما يبدوا أننا سنقع في اختلاف آراء بين اثنتين من مدارس الأفكار الرئيسة حول البحث الإجرائي: واحدة تمركزت في جامعة ديكن في استراليا حيث ستيفن كيميس هو الشخصية المركزية، والأخرى المتمحورة حول جامعة شرق انجلترا حيث جون إليوت هو الشخصية المركزية. وفي الحقيقة ليس أي من المقتبسين أعلاه يعبر عن حقيقة أفكار مؤلفيهما حول هذا الموضوع المعقد وهذا تنبيه كي تكون حذراً من صياغة فرضيات على أساس مثل هذين المقتبسين.

4. البحث كمساهمة في المعرفة: Research as a Contribution to Knowledge

إننا نعتقد بأن الخلاف الظاهر بين المقتبسين هو حقاً حول اختلافات في الطريقة التي استخدمت بها كلمة «معرفة». إن هذا الموضوع كله عن المعرفة موضوع خادع وهناك العديد من الكتب التي تحدد مواقف مختلفة عما يشكل المعرفة. ويقول مايكل باسي في تعريف بسيط جداً أن:

> **«المعرفة تعني مفهومات عن أحداث وأشياء وعمليات؛ إنها تتضمن أوصافاً وشروحاً وتفسيرات واتجاهات قيمية وكذلك أيضاً كمعرفة عن كيفية الوصول إلى هذه جميعاً، وبكلمات أخرى هي تتضمن معرفة بأن شيئاً ما هو الحالة والمعرفة بكيفية عمل شيء ما؛ إنها تتضمن نظرية-في-الأدب كما وتتضمن أيضاً النظرية الشخصية للأفراد التي لم يفصح عنها كتابة».** (Bassey, 1995: 3-4).

إن كل الهدف من البحث هو إيجاد شيء لم نكن نعرفه مسبقاً. وبهذا المعنى كل بحث هو إضافة إلى معرفتنا الخاصة. وإننا نعتقد أن صياغة ادعاء عام بالمعرفة هو أمر أكبر من الإضافة إلى معرفة شخصية. إنه يتضمن بأننا نملك شيئاً ما ذا علاقة يمكن القول أن آخرين في البيئة العامة سيجدونه نافعاً، وأننا نملك إثباتات مقنعة لدعم ما ندعي معرفته.

5. البحث كتطور مهني: Research as a Professional Development

أحد المبادئ المهمة في البحث الإجرائي أن يكون البحث تعليمياً بمعنى تطوير الذات. فإنه خلال بحثنا في ممارستنا نستطيع خلق شكل من النظرية التربوية الحية (Whitehead, 1993) تلك التي تتشكل بواسطة الأوصاف والشروح التي ننتجها عن تطورنا التعليمي أثناء إجابتنا على أسئلة من مثل، «كيف يمكن أن أحسن ما أفعله؟» إن البحث الإجرائي بهذا المعنى هو بحث مطلع وكل باحث إجرائي ينشغل في نوع من التطور المهني. وإنه لأمر غريب أن بعض الجهات تتعامل مع هذه النقطة كقصور في البحث الإجرائي بدلاً من أن تكون فائدة إضافية.

إننا ننهي هذا الجزء بالاقتباس مما كتبته بام حول بحث المعلم الإجرائي في سياق تطور العاملين المهني:

> **«... إن البحث الإجرائي هو طريقة في تحديد وتنفيذ تطور مهني ذي علاقة. إنه قادر على توظيف أشكال من التعاون والمشاركة هي جزء من بلاغتنا المهنية ولكن نادراً ما تكون ذات فاعلية في التطبيق... [إنه] ... يبدأ صغيراً بشخص واحد ملتزم يركز على ممارسته. إنه يستمد قوة دافعة عبر انخراط آخرين فيه كمتعاونين. إنه ينتشر بتأمل الأفراد لطبيعة مشاركتهم وبترسيخ مبدأ الملكية التشاركية للممارسة. إنه يستطيع التسبب في نشوء مجتمع ناقد للذات: أي مهنيين واسعين بأفضل ما في هذا المصطلح من معنى.»** (Lomax, 1990 :10).

إن النقطة التي نرغب في تأكيدها هي أن البحث الإجرائي يشتمل على العديد من الناس علاوة على الباحث، والطريقة التي يتم بها إدماج هؤلاء الناس هامة لأسلوب البحث. إن المقتبس المذكور أعلاه ينطبق خصيصاً على المعلمين إلا أن البحث الإجرائي ملائم لكل مسارات الحياة المهنية حيث يحدث التعليم والتدريب. لذا قد يستخدم البحث الإجرائي من قبل مهنيي الصحة والخدمة الاجتماعية والتعليم وكذلك المهنيين في الشرطة والقوات المسلحة وفي العديد من الجمعيات الدينية والثقافية والاجتماعية.

فيمَ يتشابه أو يختلف البحث الإجرائي عن البحوث الأخرى؟

إن هناك طرقاً مختلفة لعمل البحث. ويمكن البرهنة على أن بعض الأساليب أكثر نفعاً في سياقات معينة. ومع ذلك فبعض العمليات والإجراءات المعينة موجودة في كل أنواع البحوث. إن هذه العمليات والإجراءات هي التي تجعل البحث بحثاً وليس فقط نشاطاً منشأ للمناسبة. ويشترك البحث الإجرائي الجيد في الخصائص الأساسية لجميع البحوث، إلا أنه يملك مميزاته الخاصة به.

1. عمل شيءٍ بشأنه: Doing Something About It

لقد قال لورنس ستنهاوس أن البحث هو «بحث منهجي جُعل علنياً» (Stenhouse, 1975، 142 –162). ويمكنك أن تطبق هذا التعريف بشكل نافع على مشروع بحثك الإجرائي ولكنه لن يكون كافياً لأنه لا يتضمن أمر الإجراء الذي هو جزء لا يتجزأ من البحث الإجرائي. ومع ذلك، فإن لم يكن مشروعك منهجياً ولم يتم إعلانه، فإنه لن يوصف بالبحث، ناهيك عن بحث إجرائي. وفي مكان آخر من كتاباته يوسع ستنهاوس المفهوم مقدماً برهاناً قوياً على إمكانية أن يكون المعلمون باحثين لأن البحث هو وسيلة تمكنهم من إحداث تحسين في تعليمهم. وهذا مثال آخر على كيف أن عبارة تنتزع من سياقها لا تفي بالمقصود الكلي لكاتبها.

إن تركيز بحثك يجب أن يكون على إجرائك للحصول على الهدف الذي وضعته لنفسك. و«عمل شيءٍ بشأنه» هي أحد ملامح البحث الإجرائي التي لا تنطبق على الأنواع الأخرى من البحوث. فمثلاً يوجد في معظم أنواع بحوث العلوم الاجتماعية قواعد واضحة بشأن عدم التأثير على هدف البحث بالتدخل في الإجراء. واختلاف آخر بشأن البحث الإجرائي هو وجود أساس قيمي واضح له. إن غرضك كباحث إجرائي هو الحصول على وضع منسجم مع موقفك القيمي. وليست هذه هي الحالة في معظم بحوث العلوم الاجتماعية التي هي لا تدخلية بالتعريف.

2. بعض الأفكار والمواصفات الأساسية: Some Key Ideas and Qualifiers

يميز Passey (1995: 6) ثلاث فئات من البحث؛ البحث النظري والبحث التقييمي والبحث الإجرائي. ويقول أن الباحثين النظريين يحاولون وصف وتفسير وشرح الأحداث بدون إصدار أحكام بشأنها؛ والباحثين التقيميين يصفون ويفسرون ويشرحون الأحداث كي يقوموا هم أو غيرهم بإصدار أحكام تقييمية حولها؛ أما الباحثين الإجرائيين فإنهم يقصدون وصف وتفسير وشرح الأحداث بينما يسعون إلى تغييرها إلى الأفضل.

إن هناك بعض الأفكار الخفية في وصف باسي للبحث الإجرائي. ولقد حددنا هذه الأفكار بالكلمات الموضوعة بين الأقواس والتي قمنا ببثها في العبارة أدناه حول البحث الإجرائي.

> **الباحثون الإجرائيون ينوون وصف وتفسير وشرح الأحداث (بحث) بينما هم يسعون إلى تغييرها (إجراء) إلى الأفضل (غرض).**

إن هذه الأفكار تحتاج إلى بعض المحددات المهمة إذا أريد لها أن تكون مقبولة كأسس لنظرتنا للبحث الإجرائي. ونرغب في تحديد هذه الأفكار على النحو التالي:

- بحث منهجي نقدي جعل علنياً.
- إجراء مطلع وملتزم ومقصود.
- غرض جدير مستحق.

بحث يعني طرحك لأسئلة لا تعرف إجاباتها. والانخراط في البحث يعني بأنك ترغب في تعلم شيء جديد. والبحث الأصيل هو حيث لا تُعرف الإجابات مسبقاً. والبحث الإجرائي الأصيل يضيف إلى هذه الفكرة أن ما ستنتجه سيجعلك تغير ما تفعله على المستويين العقلي والحياة العملية. وبهذا المعنى فإنه يتضمن فعلاً متصفاً بالمعرفة والالتزام والقصدية. إنه يعني بأنك راغب في وقادر على تغيير فهمك للموضوع الذي تبحثه وأنك سوف تعمل على إحداث تغييرات عملية خارج ممارستك أيضاً. إنك تهدف إلى تبيين ماذا يعني عمل البحث في حياتك على مستوى معنيين؛ كيف أن تفكيرك وفهمك ينموان وكذلك أيضاً كيف أن بحثك له تأثير على وضعك الاجتماعي الذي أنت فيه. وبهذا المعنى فإن البحث جدير ودافعيته قيمك الخاصة نحو ما هو جيد.

كل البحوث يجب أن تكون منهجية وناقدة. ولسوء الحظ ليس كل البحوث تعرض للعلن وهناك

الكثير من الانزعاج لدى مجتمع البحوث حول عدد البحوث المدعومة مالياً محدودة النشر بسبب سياسة الحكومة. وقد يُقيّد النشر بسبب المصالح التجارية أو الأمن القومي. ونشر البحث الإجرائي خاضع أيضاً لبعض الجدل. إننا نعتقد بأن البحث الإجرائي يجب أن يكون منفتحاً بقدر الإمكان، إذ النشر المحدود يزيد في مخاطر استخدام البحث الإجرائي لأغراض استغلالية بدلاً من التربوية.

كل بحث هو استقصاء يجرى من أجل هدف والهدف دائماً من أجل تقديم إضافة إلى تقدم المعرفة. والهدف الرئيس للبحث الإجرائي هو إحداث تحسن في الممارسة. وإن هذا التحسن في الممارسة، في البحث الإجرائي، دائماً مترافق مع تقدم في المعرفة ولكن هدف الإجراء هو الملمح الرئيس. وهذا الإجراء الهادف يجب أن يكون مستحقاً بوضوح.

والمثال الجيد على اختلاف البحث الإجرائي عن البحوث الأخرى هو في الفرق بين السؤالين التاليين:

كيف يمكنني تحسين نوعية ممارستي هنا؟ (وهذا سؤال وايتهيد)

ما الذي يجري هنا؟ (سؤال باسي)

إن سؤال وايتهيد هو سؤال بحث إجرائي بينما سؤال باسي ليس كذلك. إن أسئلة «كيف يمكنني تحسين...» تبين التزامك بحل متخيل يعتمد على إجرائك. مثل هذه الأسئلة التي تُسأل في إطار سياق مهني، تبرز مركزية قيمك الخاصة كمهني يعالج موضوعاً ملتزماً بإيجاد حل له. والعديد من الكتاب يضيف الصفة «تربوي» قبل كلمات البحث الإجرائي ليؤكد النقطة بأن البحث الإجرائي يهدف إلى الحصول على وضع متحسن من خلال تقييم دقيق للإجراء. ويجب عدم استخدامه كوسيلة استغلالية ولكن كوسيلة تربوية للحصول على وضع اجتماعي جيد لجميع المعنيين بالأمر (McNiff et al, 1992).

وباختصار:

البحث الإجرائي يشترك مع البحوث الأخرى في هذه الصفات:

- يؤدي إلى معرفة.
- يوفر إثباتات لدعم هذه المعرفة.
- يجعل عملية البحث واضحة عبر المعرفة المتولدة

ويختلف البحث الإجرائي عن البحوث الأخرى لأنه:

- يحتاج الإجراء كجزء أساسي من عملية البحث ذاته.
- يتم التركيز عليه بواسطة قيم الباحث المهنية وليس بواسطة الاعتبارات الطرائقية.
- إنه بحث داخلي بمعنى أن المهنيين يبحثون إجراءاتهم المهنية الخاصة بهم.

مفهوم خاطئ شائع: لا تستطيع استخدام الإحصاء في البحث الإجرائي. لا، إنك تستطيع!

إن الباحثين الإجرائيين يستطيعون توظيف كلاً من تقنيات البحث النوعية وتقنيات البحث الكمية. وعندما تستخدم تقنيات البحث النوعية فإنك ستكون باحثاً في عدد صغير من القضايا بتفاصيل كثيرة بقدر الإمكان. وعندما تستخدم تقنيات البحث الكمية فإنك ستكون باحثاً في عدد أكبر من القضايا بتفاصيل أقل ولربما أنك ستجد الإحصاء أدوات مفيدة. وكثير من الباحثين الإجرائيين يستخدمون كلاً من تقنيات البحث النوعية والكمية. وأيما استخدمت من التقنيات ، يجب عليك اتباع الإرشادات المقدمة لاستخدام التقنية. إن البحث الإجرائي ليس عذراً لاستخدام تقنية بحث راسخة بطريقة سيئة.

ما هي الملامح الرئيسة لعملية البحث الإجرائي:

What are the Main Features of the Action Research?

هنا مختصر بالملامح الرئيسة. إن هذه الأفكار ستعالج بشكل أكبر في الفصول المناسبة. ويتضمن البحث الإجرائي:

1- التزاماً بالتحسين التربوي.
2- نوعاً خاصاً من السؤال البحثي.
3- وضع ألـ «أنا» في مركز البحث.
4- نوعاً خاصاً من الإجراء المتصف بالمعرفة والالتزام والقصدية.
5- المراقبة المنهجية لتوليد بيانات صادقة.
6- وصفاً أصيلاً للإجراء.
7- شروح الإجراء.
8- طرقاً جديدة لتمثيل البحث.
9- ادعاءات صادقة مصاغة كنتيجة للبحث.
10- إعلانية البحث الإجرائي.

1. الالتزام بالتحسين التربوي: A Commitment to Educational Improvement

إن البحث الإجرائي هو تدخل في الممارسة الشخصية لإحداث التحسين. إن البحث ليس عشوائياً ولا روتينياً، ولكنه يتخذ حافزاً من قيم تربوية تحتاج للاستكشاف والدفاع عنها. إنه نوع عملي من البحث يعترف بأن العالم ليس كاملاً وأن القيم المهنية يجب أن يتفاوض بشأنها. وأحد القيم المركزية والمقبولة من معظم الباحثين الإجرائيين هي قيمة احترام الآخرين والتي تعني بأن وجهات نظرهم وقيمهم يجب أن تحترم. إن دور «الآخرين» في البحث الإجرائي هو اهتمام أساسي يجب توليته تفكيراً دقيقاً.

2. نوع خاص من السؤال البحثي: A Special Kind of the Research Question

إن النوع الخاص من السؤال الذي يسأله الباحثون الإجرائيون يبدأ بـ :

كيف يمكنني أن أحسن ...

- ممارستي الشخصية.
- مفهومي للشيء.
- الوضع التعليمي الأعم.

وإنه لمن المهم أن تعي بأن أسئلة وفرضيات بحثية معينة تقود إلى تصميمات بحثية معينة وقد يكون بعض هذه غير ملائم للبحث الإجرائي.

يوجد في البحث الإجرائي تأكيد على نيتك المقصودة في التدخل في ممارستك للحصول على التحسين. إن هذه النية تحتاج إلى صياغة بطريقة خاصة. وأسئلة البحث الإجرائي يجب أن تكون من نوع «كيف يمكنني أن أحسن...؟» لأن البحث الإجرائي يجب أن يكون حول فعلك وليس فعل الآخرين.

3. وضع ألـ «أنا» في مركز البحث: Putting the (I) in the Center of the Research

أنك أنت الشخص الذي في مركز البحث. إنها لفكرة جيدة أن تستخدم الضمير الشخصي ولكن فقط في الموضع الذي تؤكد فيه ملكيتك الخاصة لعبارة تصوغها. إن بعض الناس يستخدمون الضمير الشخصي بشكل فضفاض لصياغة عبارات ربما لا يملكونها. إن الضمير الشخصي مهم في البحث الإجرائي ولهذا يجب استخدامه بعناية فائقة.

كيف يمكنني أن أستخدم ألـ «أنا» بشكل ملائم في البحث؟

- أنا الفاعل والمفعول للبحث.
- إنني أتحمل مسئولية إجراءاتي.
- إنني أملك ادعاءاتي وأحكامي.
- أنا مؤلف تفسيراتي البحثية.

كيف يمكنني استخدام ألـ «أنا» بشكل ملائم في الإجراء؟

- بواسطة رؤية ممارستي على أنها البؤرة المركزية لبحثي عبر التفكير الناقد والدراسة الذاتية.
- بواسطة تشجيع الآخرين على المشاركة في تعريف متفاوض بشأنه للممارسات المشتركة.
- بواسطة إظهار الاحترام لطرق الآخرين في عمل الأشياء.
- بواسطة إظهار التواضع والتهيؤ للنقد.
- بواسطة تبني أخطائي.
- بواسطة التيقظ عندما تكون مبادئي على المحك.

4. أي نوع من الإجراء؟ What Kind of Action

أ) إجراء مطلع: Informed action

البحث الإجرائي هو بحد ذاته أسلوب للتأكد بأن أفعالك مطلعة. إنه يعني الفحص المنهجي لأفعالك ودوافعك ومعاملة استنتاجاتك وتفسيراتك بشكل ناقد وجعل نفسك منفتحة لأي وجهات نظر بديلة كي تقلل من تحيزاتك الشخصية. ومن أجل أن يكون بحثك مطلعاً فإنك تحتاج لأن تكون وقائياً في استكشاف دوافعك وقيمك كي تكون على وضوح بتعليل ما تفعل. إنك محتاج لأن تكون مستعداً لاستراتيجيات بديلة للإجراء وشروح بديلة لنتائجه. لقد أوضحنا أن جعل بحثك معلناً هو طريقة لدعوة وجهات نظر أخرى قد تزيد ما تعمله اطلاعاً. وإن قراءة ما كتبه الآخرون، خصوصاً نتائج البحوث الأخرى، هي طريقة أخرى في عمل ذلك.

ب) الإجراء الملتزم: Committed action

وإننا نقترح أيضاً بأنه في البحث الإجرائي الناجح يجب أن يكون الإجراء ملتزماً. وهذا يعني أن أفعالك تنبع من التزام شخصي قوي بإحداث التحسينات التي تسعى إليها. البحث الإجرائي لا يكون طريقة جيدة فقط عندما ينفذ الباحث إملاءات الآخرين. إن هذا لا يعني أن البحث الإجرائي هو بحث شخصي أناني أو أنه لا يمكن استخدامه في تنفيذ خطط مؤسساتية. إنه بالفعل يعني أن الباحث الإجرائي محتاج لأن يكون الممسك بكل الخيوط في الإجراء وأن يستطيع إلزام قيمه الشخصية في المشروع.

ج) الإجراء المقصود: Intentional action

يجب أن يكون البحث الإجرائي أيضاً مقصوداً. إن صياغة وتنفيذ الخطط ومراقبة الإجراء وتقييمه هي جوانب ضرورية في العملية. ومع ذلك فإن الاستقصاء في البحث الإجرائي هو عملية وليس نتاجاً وأن العديد من الأفعال والنتائج الهامة غير المقصودة تتدخل. إن الباحث الإجرائي الجيد يتخذ ميزة من هذه الأحداث غير المخططة ويدمجها في حلقات مستقبلية من الإجراء. كما وإنه لحقيقي أن العديد من الأفكار تستعاد أثناء العمل ولهذا السبب فهي ليست نتيجة للفعل المخطط. وبرغم ما يدعوه Griffiths (1990: 43) بـ «فعل الحياة الواقعية المتسم بالفوضى» إلا أن الباحث الإجرائي يعمل فعلاً بقصدية. القصدية لتحسين الممارسة من أجل أن تكون منهجية ولأن تكون داعية للنقد وهكذا.

5. المراقبة المنهجية من أجل توليد بيانات صادقة: Systematic Monitoring to Generate Valid data

إن أحد النتائج الهامة لبحثك الإجرائي ستكون تغيير فهمك لممارستك المهنية. إنك تحتاج لأن تكون قادراً على تبيين كيف حدث هذا بواسطة وصف تفكيرك المتغير عبر الوقت وشرح كيف نتج هذا من فحصك لإجرائك. وكونك منهجياً بشأن جمع البيانات أمر هام لجوانب عديدة مختلفة في عملية البحث الإجرائي. وجزء من كونك منهجياً يتضمن جمع بيانات كي تستطيع تحديد أين تقييمك لإجرائك قد أدى إلى أفكار جديدة عن ممارستك. وكونك منهجياً بشأن مراقبة وتقييم

إجرائك سوف يساعدك في جعل النقاط التي يحدث عندها التعلم بارزة. ويتضمن جمع البيانات بعض القرارات الخادعة إذ أنه ليس دائماً من الممكن التنبؤ بأي البيانات ستكون ذات أهمية فيما بعد في العملية. وكونك منهجياً يعني أن عملية جمع البيانات ليست عشوائية، ولكن يجب أن تؤدى استناداً إلى خطة ما. و يجب أن تكون عملية شاملة بقدر الإمكان لأن العديد من الأفكار الهامة تأتي بعد الحدث، أثناء محاولتك فهم البيانات التي جمعتها. ويمكن استخدام البيانات كإثباتات على هذه التغيرات. وسنقدم بعض الإرشادات حول نوعية البيانات التي ربما تجمعها وعن الاستراتيجيات حول التعامل معها في الفصل الرابع والخامس.

6. تقديم توصيف أصيل للإجراء: Providing Authentic Description of Action

إن مراقبة الإجراء يجب أن تولد بيانات يمكن أن تستخدم في تقديم توصيف أصيل له. فالعديد من الباحثين الإجرائيين يقللون أصالة تفسيراتهم بخلطهم تفسيراتهم للبيانات مع توصيفها.

أ) التفسيرات الحقائقية: Factual accounts

معظم توصيفات الإجراء هي تفسيرات حقائقية تعتمد على مخطوطات النقاشات واللقاءات أو على مختصرات للبيانات مأخوذة من الاستبانات والمقابلات. وكثيراً ما يجري تضمين مختصرات إحصائية لعرض تغييرات مثلاً في تركيب ونوعية مساهمات الأفراد في لقاء نقاشي لهيئة العاملين. والتصوير بالفيديو والتسجيلات الصوتية هي أيضاً طرق في جمع البيانات الحقائقية.

ب) التفسيرات الذاتية: Subjective accounts

وقد تكون توصيفات أخرى معتمدة على تفسيرات أكثر ذاتية مأخوذة من المذكرات والتأملات والملاحظات الشخصية. وهذه ذاتية فقط بمعنى أنها تمثل وجهة نظر شخص واحد. وقد تكون قد أنتجت بمنهجية وتحيز أقل من التفسيرات «الموضوعية» المذكورة أعلاه.

ج) التفسيرات الروائية: Fictionalised accounts

العديد من الباحثين الإجرائيين يتعاملون بالسرد الروائي الذي يحافظ على مجهولية المشاركين. فمثلاً البحث الإجرائي الذي يعالج تطور الموظفين أو تقييم الموظفين قد يتطلب إخفاء الهوية الحقيقية للناس. وباحثون آخرون كتبوا قصصاً تجعلهم قادرين على فتح أحداث للنقاش العام والتي ستكون عملية التعبير عنها سرية جداً، مثل الأجزاء السرية من لقاءات الحكوميين. إن هذه التفسيرات المصاغة في قالب روائي قد تكتب بطريقة لدرجة أن البيئة قد تتغير أو أن تعطى الشخصيات هويات تخفي هويتها الحقيقية.

7. شرح الإجراء: Explaining the Action

الأفضل أن تشرح الإجراء بعدما تكون قد وصفته بعناية. وشرح الإجراء سيستغرقك في:

- تحديد المعاني المحتملة.
- التنظير.

- إنشاء النماذج.
- الربط مع الأعمال الأخرى.
- جعل الوصف «ناقدا».

ويوجد عدد من الاستراتيجيات التي يمكن أن تساعد في شرح الإجراء. ومع أن البحث الإجرائي ليس عادة هو حول فحص الفرضيات وتطبيق نماذج معدة سلفاً على وضع ما من أجل اتخاذ قرار بشأن فعل ما، إلا أن قراءة الأدب البحثي قد تكون ذات فائدة عظيمة لتحديد التفسيرات المحتملة للفعل.

ومع أن اتخاذ موقف ناقد بشأن فعلك ونتيجته صعب على التطبيق، إلا أن الوصول إلى تفسير نافع هو جانب هام. تذكر الكلمات التي كتبناها سابقاً حول البحث في البداية – إنها تضمنت الحياد والبقاء حذرين. وهذه مهمة خاصة في البحث الإجرائي حيث «كونك ذاتياً» هي ميزة ونقطة ضعف معاً. إنها ميزة لأنها تسمح لك أن تنال معلومات داخلية للأحداث. وهي نقطة ضعف لأنها من الممكن أن تقودك بسهولة إلى نتائج متحيزة عما تفعله. ولهذه الأسباب فإنك محتاج لأن تكون منهجياً في فحص كل من دوافعك وراء الإجراء وتقييمك لنتائجه. ومن أجل الحصول على صورة غير متحيزة لبحثك الإجرائي ونتيجته فإنك تحتاج إلى ضم أناس لتمحيص تفسيراتك (Lomax, 1991: 102 - 113). وحيثما امتلكت بيانات جيدة تساعد في وصف أصيل للفعل فإنك تمتلك وسيلة لمشاركة الإجراء مع آخرين لاحقاً كي يكون ممكناً مناقشتها وتحليلها. والتصوير بالفيديو للصف أو المشاغل مفيدة بصفة خاصة بهذا الشأن.

وهناك جانب آخر في «الصياغة الناقدة» والتي هي مفيدة بهذا الخصوص. إن جعل حدث ما «ناقداً» يعني استكشاف أهميته من عدة زوايا مختلفة. إنه يعني اختبار الفرضيات المسلم بها عن الحدث. وفي اللحظة التي تجعل فيها حدثاً ما حدثاً ناقداً فإنه يمكن ربطه بمواضيع أوسع مثل النظريات التربوية المختلفة أو الفلسفة الإدارية للمدرسة أو المؤسسة التي جرى فيها الحدث. كما ويوجد أيضاً عدد من العوامل الاجتماعية والسياسية التي قد تثري مناقشة ما بالمعرفة على مستوى أكثر عمومية.

8. تمثيل البحث الإجرائي: Representing the Action Research

إن مقدرتك على تقديم وصف أصيل لفعل يستند على بيانات محددة هو مساعدة عظيمة لتطوير شروح لأجزاء من البحث الإجرائي. إن تمثيل العملية ككل أمر صعب كثيراً (Lomax and Parker, 1995: 301 - 314). وكثيراً ما تعرض البحوث مصطلحات علمية تبرز اليقينية وتستثني الطرق البديلة في صياغة علاقات أخرى. إن الباحثين الإجرائيين معنيون أكثر بتحديد التناقضات. إن هناك بعض الطرق الأكثر إثارة في تمثيل البحث الإجرائي والتي تجسد كيف أن مفاهيم الممارسة تتغير مع الوقت (Laidlaw et al, 1996). إنها تساعد الباحث على التعبير عن مشاعره بشأن العملية وبشأن التقدم في استقصائهم وبضمن ذلك قبول التناقضات بين الممارسة والنية.

استخدام التأمل الذاتي: Using self-reflection

يستخدم Parrie Jones (1989: 62 - 47) تقنية ممتعة وفيها يدخل نفسه في مناقشة ليبين عملية كيف أن فهمه لمجريات بحثه الإجرائي قد حدثت. فهو يكتب:

> **«لقد تعرفت عن طريق Diamond (1988) على فكرة استخدام المذكرات الذاتية كأداة لفهم الذات، وقد تلقى اهتمامي بهذه الطريقة الدفع من كتاب Boud and Griffin (1987) والذي يناقشان فيه إمكانية الوقوف بعيداً عن عملية تعلم الفرد من أجل اختبار وتقوية التطور في تلك المسألة. لقد حفزت هذه المدخلات تفكيري وقادتني أخيراً إلى فكرة ربط صديق «متخيل» كمحادث سيصبح نقطة الانطلاق لتأملي الذاتي.»**

وقد كتبت ماري مكارثي «محادثة مع نفسي» تبين عملية التأمل الذاتي في البحث. إنها تقول: «يمكنك تطبيق ذلك على كل حياتك وعلى هذا البحث الإجرائي. إنه استقصاء تأملي كلي في ممارستك من أجل أن تقول لنفسك باستمرار» ما الذي أفعله؟ لماذا أعمله بهذه الطريقة، وكيف يمكنني تحسينه؟ (McCarthy, 1994: 49).

استخدام الحوار والمناقشة: Using Dialogues and Conversation

لقد قدم مؤلفو هذا الكتاب (جين بام وجاك) بعض كتابة بحثهما الإجرائي في شكل نقاشي (Lomax and Cowan, 1989: 114-129; McNiff, 1993: 71-98; McNiff, Whitehead and Laidlaw,1992: 91-96; Whitehead and Lomax, 1987: 175-190; Whitehead, 1993: 142–184) إن هذه الحوارات طريقة جديدة حيث يحاول الباحثون الإجرائيون تقديم الجانب الحي في نظرياتهم حول الممارسة. ويوضح Jack Whitehead (1993: 69) بأن هذه الطريقة تقدم شكلاً حياً لنظرية تربوية مفتوحة – النهاية وتحتوي على النية لابتداع شيء ما أفضل. ويوضح Eames (1995) بأنها أيضاً توفر قاعدة معرفة مهنية للتعليم. وتُفقَد هذه الحيوية إذا ما كان واجباً تنظيم بيانات البحث بطريقة غير ملائمة كما هو الحال غالباً عندما نحاول أن نعدها «بشكل مقبول» في مقالة لمجلة أو أطروحة.

استخدام الرواية والقصة: Using Narrative and Story

والقصة طريقة أخرى لعرض البحث الإجرائي. والقصص توليدية بطريقة تشجع على تفسيرات أصيلة ومتنوعة لكل من مؤلفيها ومشاهديها. وقد استخدمت موري إيفانز القصة بهذه الطريقة ونحن نشير إلى بعض عملها في الفصل السابع. وهي مثل مكنيف (في العمل المذكور) ترى القصة كاستكشاف، فيه البحث عن نظرية وراء القصة أهم بكثير من موضوع القصة حقيقية.

استخدام حلقات ودائريات البحث الإجرائي المتصاعدة: Using action research cycles and spirals

كما لاحظنا في بداية هذا الفصل، فقد وصف الباحثون عمليات البحث الإجرائي بطرق مختلفة

وأنتجوا أشكالاً ونماذج مختلفة لتمثيله. وأحد الملامح البارزة في البحث الإجرائي والمتفق بشأنها من الجميع أنه يعمل في حلقات. وأحياناً تستخدم حلقية البحث الإجرائي أو دائريته كطريقة في تمثيل البحث الإجرائي. وملامحها الجوهرية اللحظات الدائرية المتكررة الصاعدة من التخطيط والتنفيذ وإيجاد الحقائق ولكن هناك اختلافات عديدة مثل نموذج 1990 لموروينا جريفثز. ويحتوي نموذج جريفثز على حلقات ثلاث والتي تضيف حلقة داخلية مرتبطة بتأمل في الإجراء (Schon,1983)، وحلقة خارجية مرتبطة بتأمل طويل المدى . وهي تشرح بأن «البحث يتقدم بواسطة ارتكاب أخطاء في حلقة تأمل ذاتي متصاعدة من التخطيط والتنفيذ والملاحظة والتأمل والتخطيط إلخ. إن هذه الدائرة المتصاعدة هي واحدة تكون فيها التغذية الراجعة مستمرة بعدة طرق في نفس الوقت. وهذه معروفة بفوضى الحياة الحقيقية للممارسة...» (Griffiths, 1990: 43)

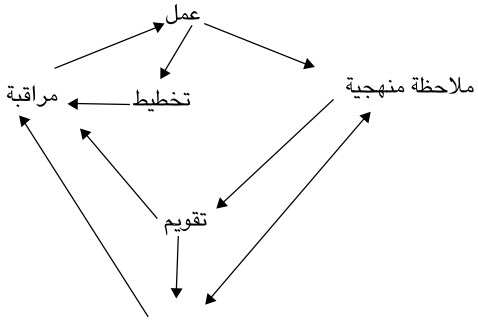

التأمل الذاتي طويل المدى

راجع من فضلك نداءات التجربة: **ابدأ البحث التجريبي** المعد في المساق الدراسي رقم B 801 خلال فصل الخريف عام 1995 حول «تحسين التعلم» ومنشور من قبل كلية التربية بجامعة كوينز في كنجستن بأونتاريو وذلك من أجل مادة ممتازة تبين طلاباً متعلمين مبتدئين في استخدام حلقات الإجراء التأملي لأول مرة.

وبتطوير حلقات البحث الإجرائي إلى دوائر تصاعدية من الإجراء، يمكن إظهار دينامية البحث وقدرته على التأقلم مع التأثيرات الجديدة. وبتوظيف تنويعة من الدائرية التي تسمح بفحص مواضيع أخرى كدائريات جانبية، يمكن تحقيق التلائم مع طبيعة التعقيد والإبداع في الحياة الحقيقية. (McNiff, 1988: 45).

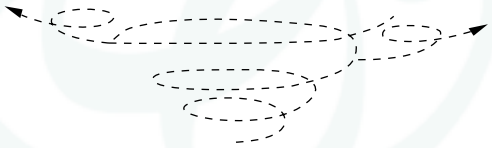

إن حلقات البحث الإجرائي هي طرق في تنظيم عملية البحث أكثر من كونها طرقاً في تمثيل البحث. إنها أفضل ما تكون لمساعدتنا على تنظيم البحث وأقل فاعلية لمساعدتنا في تقديم شروح لممارستنا أو لنقلها لجمهور ما.

إن نقل الحلقات في حلقات جديدة وكذلك كل البحث قد يُرى كـ «حلقات من حلقات» أو دائرة متصاعدة من دوائر متصاعدة فيها إمكانية الاستمرار إلى ما لانهاية. وكمثال فقد درس McDermott and Corcoran (1994) تجمعات الصداقة في كليتهما. لقد تغيرت بؤرة المشروع مع الوقت وكل تغير تضمن توسعاً في مجال الاستقصاء: «لقد كان البحث أساساً حول ثلاثة أشياء: أولاً، بناء معنوية الطالب وبناء حسٍ مشتركٍ بالهدف ثانياً، تطوير مهارات دراسية في داخل المجموعات؛ وثالثاً، تشجيع المجموعة على توفير مؤازرة أقران للأفراد الذين يعانون صعوبات تعلمية في متطلبات [الامتحانات]» (في المرجع المذكور أنفاً: 91).

استخدام الرسومات: Using Drawings

بعض الباحثين الإجرائيين ابتدعوا مرئيات فريدة استخلصوها لمساعدتهم على فهم وتبادل التغييرات في بحوثهم الإجرائية. وقد وُصف عدد منها في بحث Lomax and Parker (1995). وتوجد بعض الأفكار الجديدة المثيرة في هذا المجال مثل استخدام خريطة الحية كجزء من مقابلة شبه معدة. إننا نتفحص هذه الخاصية في الفصل السابع

استخدام التقنيات التجريبية: Using Experiential Techniques

تستخدم آن فليشمان (Fleischmann and McNiff, 1997- forthcoming; 1996) أشكالاً مختلفة من التجربة لدعم أشخاص في استكشاف طرق للمعرفة. فهي تشجع مهنيين على الانشغال في أنواع من الخبرة، مستندة إلى فكرة الذكاء المتعدد، لتعمل من أجل قوتهم وترحيبهم بأن العدد الأكاديمي التقليدي ومهارات الكلمات هي جزء فقط من الصورة الكلية لـ «قادم لأعرف».

9. جعل ادعاءات البحث التجريبي صادقة: Validation Action Research

تتضمن عملية جعل ادعاءات البحث الإجرائي صادقة التالي:

- صياغة الادعاءات.
- اختبار الادعاءات نقدياً بمواجهة البيانات.
- ضم آخرين في صياغة الأحكام.

في البحث التقليدي تعتمد عملية المصداقية على الاعتقاد بأن ما يجب أن يكون معروفاً يمكن تقييمه موضوعياً. إن هذا المنطق التقليدي غير دقيق في البحث الإجرائي الذي يؤكد على أهمية تفسير ومناقشة الفرد للأحداث. ففي البحث الإجرائي تُرى الخبرة الشخصية التي يمكن مشاركتها بفهم كامل من قِبَل عدد من الناس كأساس جيد لترسيخ المصداقية. وهذا يحدث على عدة المستويات.

- المصداقية الأولية للبحث الإجرائي تعتمد على نوع التفسير لممارستهم بمعنى أن أفراداً يرغبون في قبول أنفسهم، أو قبول المصداقية الذاتي.
- ومستوى ثانٍ يحدث حيث يستطيع مهنيون متعاونون، وهم أشخاص يفهمون البيئة التي نعمل فيها، النضال لمصلحة الآخرين عبر البيانات التي نوفرها لفهم الادعاءات التي نصوغها.
- مستوى ثالث هو الإعلانية، بإقناع الآخرين الذين قد يكونون غرباء، بالحقيقة التي في ادعاءاتنا.

والمصداقية هي ذلك الحدث الذي يجب أن يكون جزءاً من عملية بنائية مستمرة للبحث الإجرائي. وهذه هي الحالة بوضوح عندما تكون جزءاً من عملية التأمل الذاتي النقدية. إنها تفعل فعلها عندما يناقش الباحثون الإجرائيون عملهم مع زملائهم والأصدقاء النقاد والمشرفين الأكاديميين. ومن الممكن أن يكون حدثاً رسمياً بصورة أكبر وكجزء من عملية إجمالية كما هو موضح أدناه. وقد يكون أيضاً حدثاً رسمياً جداً كما في حالة عرض البحث على جمهور في مؤتمر أو نشره في مجلة محكَّمة.

صياغة الادعاءات: Making Claims

ما نوع الادعاءات التي يصوغها الباحثون الإجرائيون؟ من المهم التأكد أن الادعاءات تصاغ حول البحث بدلاً من صياغتها حول الإجراء فقط. على افتراض أن الإجراء كان سيحدث بغض النظر عن البحث. ما الذي قد أضافه البحث فجعل الإدعاء مختلفاً عما كان سيكون مجرد نتاج لممارسة مهنية جيدة؟ ويوجد مفتاح الإجابة في نوعية الأسئلة التي يطرحها الباحث الإجرائي:

كيف يمكنني تحسين ...

...ممارستي الشخصية؟

...فهمي لهذا؟

...الموقف التعليمي الأعم؟

ويمكن تشكيل الإجابات على هذه الأسئلة كادعاءات. مثلاً:

خلال البحث أنا

...أفهم...ما لم أكن أفهمه سابقاً.

...قد غيرت ممارستي... بنتائج تعليمية.

...حصلت على تغيير... هو تحسين.

- وتجعل المصداقية الباحثين الإجرائيين قادرين على اختبار ادعاءاتهم بالتحسين والفهم بصورة أفضل لممارستهم المهنية الخاصة، مثل تيسير المشاركة في اللقاء الأسبوعي لرؤساء السنة في المدرسة أو دفع التلاميذ متكرري الغياب في فصلهم على حضور دروسهم.
- بعض الباحثين الإجرائيين أيضاً سيكونون قادرين على إظهار كيف أنهم حققوا تغييرات مؤسساتية تمثل تحسينات تربوية حقيقية مثل توظيف سياسة جديدة لكشف الحاجات الخاصة بنجاح في المدرسة أو LEA.

هدف المصداقية في البحث: The purpose of validation in action research

إن أهداف لقاءات المصداقية أعدت كجزء من برنامج التطور المهني الذي دعمناه نحن (جين، بام وجاك) وهذه الأهداف هي:

1. اختبار الحجج بواسطة جمهور ناقد يتفحص عدم الوضوح ويساعد في تحديد نقاط الضعف ويقترح التعديلات.
2. معاينة البيانات والطريقة التي حللت وعرضت بها.
3. إبراز «الادعاء بالمعرفة» والتأكد من أن البيانات تدعمها.
4. تقديم أفكار جديدة.
5. توليد الحماس من أجل إكمال البحث.

ويُنصح المشاركون بأنه لقاء عمل ويجب أن يكون الباحثون حريصون على التعلم منه. ويُنصحون بألا يكونون دفاعيين، ولكن يستثمرون المجموعة من أجل تقدم بحثهم إلى الأمام.

بعض الأخطاء الشائعة التي ظهرت في عملية المصداقية:
Some common pitfalls shown up at validation

- الإخفاق في فصل التوصيف عن الشرح.
- الإخفاق في تمييز الإجراء من البحث الإجرائي.
- الخلط بين البيانات والإثباتات (البينات).
- تقديم بيانات خام بدلاً من بيانات مختصرة.
- الإخفاق في تسجيل اللقاء.
- الإخفاق في معاملة حدث المصداقية كجزء من عملية البحث الذي سيتم وصفه.

ضم آخرين في عملية المصداقية: Involving others in the validation process

تنشأ مجموعة المصداقية في بعض السياقات رسمياً لمساعدة الباحثين على فحص ادعاءاتهم نقدياً على محك الإثباتات (Forrest, 1983; Lomax, 1996). إن النتاج المقصود هو من أجل تطوير الباحث فهماً متقدماً عن البحث وليكون قادراً على صياغة خطط أكثر للإجراء. وإن مكونات مجموعات المصداقية هذه هامة. فيجب أن تشتمل على أناس يعرفون بيئة العمل أو قادرون على التعاطف مع البيئة. ويجب أن تشتمل على أناس من خارج البيئة يستطيعون تقديم وجهة نظر خارجية. ويجب أن تشمل أناس مألوف لديهم أسلوب البحث الإجرائي ولكن ليس بالضرورة أن يكون مألوفاً لديهم الوضع الذي سيطبق فيه البحث.

سنكمل مناقشة هذه الموضوعات في الفصل السادس.

10. جعل البحث علنياً: Making public

إن أفضل طريقة لجعل البحث صالحاً هي جعله علنياً. هذا الأمر الذي يوضح أنه ليس لديك شيء تخفيه وأنك راغب في قيام الآخرين بتفحص ما قد حدث لمساعدتك على الانتقال بتفكيرك إلى الأمام. إنك تستطيع تعلم الكثير من الاستماع إلى أسئلة من أناس هم خارجيين بالنسبة للبحث. فقد تقود هذه الأسئلة إلى تقوية قناعتك بشأن الادعاءات التي صغتها وتبحث عن إثباتات أفضل لتقنع الآخرين بشأنها؛ وقد تقودك إلى تعديل ادعاءاتك لأنك قادر على تحديد الفجوات في حججك، هذه الفجوات التي لم ترها من قبل. إننا نجد «عملية الإعلان» هي المرحلة الأكثر إثارة

في البحث الإجرائي لأننا عادة نكتشف أن أناساً آخرين كثيرين يشاركوننا في الاهتمامات التي لدينا وأننا قادرون على التقدم إلى الأمام متسلحين «بأصدقاء» بحثنا الجديد متنشطين بأفكار وتقنيات جديدة.

إن عملية جعل البحث الإجرائي علنياً لها أيضاً صعوباتها. فهناك اعتبارات أخلاقية هامة إذا ما كنت تنوي نشر معلومات تتضمن أناس آخرين. وإنه لمن المهم بصفة خاصة أن تتوفر السرية والمجهولية في البحث الإجرائي وأنه لأمر صعب خصوصاً لأن البحث الإجرائي من تعريفه هو عنك ولهذا السبب فإن آخرين قد يتعرفون على أنفسهم وعلى أفراد آخرين. وكونك صريحاً صراحة تامة بشأن البحث منذ البداية يمنع العديد من المشاكل التي قد تنشأ فيما لو كان الباحثون الإجرائيون أقل صراحة بشأن ما يفعلونه ويجدون أنفسهم غير قادرين على الكتابة عن بعض عملهم لأنه يتضمن زملاء لم تكن لديهم فكرة بأنهم كانوا جزءاً منه.

إن عملية الإعلان هي جزء من نظام البحث الإجرائي لأنها تستدعي التأييد أو النقد. عليك أن تدرس كيف ترغب أن يقوم الناس بتقييم بحثك. هل تريدهم أن يقيموه من جهة علاقته ونفعه لممارستهم؟ أو تريدهم أن يعرفوا بأنك تصرفت بمهنية وأخلاقية؟ وأيما كانت المعايير والمستويات التي تختار التركيز عليها فإنك تحتاج إلى توفير إثباتات جيدة لدعم ما تقول وهذا سيعتمد على نوعية البيانات التي تملكها. إن عملية الإعلان تعني وضع بحثك في سياقه الاجتماعي – بمعنى إيضاح أن البحث جزء من العالم الحقيقي – ومن ثم مشاركة نتائج البحث مع أناس آخرين.

إن عملية الإعلان لا تعني بالضرورة النشر في مجلة أو تقديم ورقة في مؤتمر، مع أن هذه طرق أكاديمية تقليدية. إنها تعني مشاركة النتائج مع أناس آخرين، خصوصاً الزملاء في مجرى العمل والتفحص معهم سواء أكانت مدركاتك عادلة ومضبوطة بدرجة معقولة أم لا. وإن الإعلانية يجب أن لا تترك حتى نهاية المشروع. إننا نعتقد أنه من المهم إجراء الإعلان في جميع مراحل استقصاء البحث الإجرائي من أجل تفحص مدركاتك الخاصة بشأن المستخلصات والنتائج مع الأناس الآخرين. وهذه الأفكار يتم تطويرها بتفصيل أكبر في الفصل السابع.

لقد أنهيت الآن قراءة هذا الفصل ويجب أن تكون قادراً على:

إعطاء تعريف عملي للبحث الإجرائي.

القول هل أنت باحث إجرائي أم لا، ولماذا؟

تمييز البحث الإجرائي عن الأنواع الأخرى من البحث.

تحديد الملامح الرئيسة لعملية البحث الإجرائي.

البدء بثقة في الفصل التالي الذي سيساعدك في البدء بتحديد مهام بحثك.

قائمة المراجع:

Also reprinted in Burgess, R. (ed) *Issues in educational research* (Falmer Press, 1985).

Bassey, M. (1995) *Creating Education through Research*, Newark: Kirklington Press.

Boud, D. and Griffin, V. (1987) *Appreciating Adults Learning*, London: Kogan Page.

Dadds, M. (1995) *Passionate Enquiry*, London: Falmer Press.

Diamond, P. (1988) "*Biography as a Tool for Self-understanding*", unpublished paper presented at the University of Surrey.

Eames, K. (1995) *How do I, as a teacher and an educational action researcher, describe and explain the nature of my professional knowledge*? Unpublished PhD thesis, University of Bath.

Eames, K. (1995) *How do I, as a teacher and an educational action researcher, describe and explain the nature of my professional knowledge*? Unpublished PhD thesis, University of Bath.

Ebbutt, D., *Educational action research*: some general concerns and specific guibblse, mimeo (Cambridge Institute of Education, 1983).

Elliott, J., *Action research*; framework for self evaluation in schools, TIQL working paper No. 1, mimeo (Cambridge Institute of Education, 1981).

Elliott, J. (1991) *Action Research for Educational Change*, Milton Keynes: Open University Press.

Fleischmann, A. (1996) "*Spotting their intelligences*" in Action Researcher, 4.

Forrest, M. (1983) "*The teacher as researcher - the use of historical artefacts in primary schools*", University of Bath, unpublished MEd dissertation.

Gadamer, H. G., *Truth and method* (N.Y., Seabury Press, 1965)

Griffiths, M. (1990) "*Action Research: grass roots practice or management tool*?" in P.Lomax (Ed.) *Managing Staff Development in Schools: an Action Research Approach*, Clevedon: Multi-Lingual Matters, 37-51.

Habermas, J., *Communication and the evolution of society*, tr. T. McCarthy (Boston, Beacon Press, 1979).

Hopkins, D., *A teacher's guide to classroom research* (Open University Press, 1985).

Jones, P. (1989) "*In conversation with myself: becoming an Action researcher*" in P. Lomax (Ed.), *Managing Staff Development in Schools: An Action Research Approach*, Clevedon: Multi-Lingual Matters, 47-62.

Kemmis, S. and McTaggart, R. (1982) *The Action Research Planner*, Australia: Deakin University Press.

Kuhn, T., *The structure of scientific revolutions* (University of Chicago Press, 1962).

Rapoport, R., *'Three dilemmas in action research'*, Human relations, Vol. 23 (1970).

Reason, P. and Rowan, J., *Human Inquiry* (Wiley, 1981).

Schutz, A., *The phenomenology of the social world* (Evanston, Northwestern University Press, 1972) .

Stenhouse, L., *Introduction to curriculum research and development* (Heine-mann Education, 1975).

Walker, R., *Doing research* (Methuen, 1985).

Laidlaw, M. (1994) "*The democratising potential of dialogical focus in an action enquiry*" in Educational Action Research, 2 (2) 223-242.

Laidlaw, M. (Ed.) (1996) "*Conversation*", in Action Researcher, 4.

Lomax, P. (1990b) "*An action research approach to developing staff in schools*" in P. Lomax (Ed.) Managing Staff Development in Schools, Clevedon: Multi-Lingual Matters, 2-7.

Lomax, P. and Cowan, J. (1989) "*Reflecting on the action: questions of assessment and accreditation*" in P. Lomax (Ed.) The Management of Change, Clevedon: Multi-Lingual Matters, 114-129.

Lomax, P. (Ed.) (1991a) M*anaging Better Schools and Colleges: An Action Research Way*, Clevedon: Multi-Lingual Matters.

Lomax, P. and Parker, Z. (1995) "Accounting for ourselves: the problematic of representing action research" *Cambridge Journal of Education*, 25 (3) 301-314.

Lomax, P. (Ed.) (1996) *Quality Management in Education*, London: Routledge and Hyde.

McCarthy, M. (1994) "*Teaching an English novel to first year students*" in McNiff, J. and Collins, U. (Eds.) ANew Approach to In-Career Development for Teachers in Ireland, Boumemouth: Hyde Publications, 33-40, 49-53.

McDermott, K. and Corcoran, P. (1994) "*Friendship groupings*" in McNiff, J. and Collins, U. (Eds.) A New Approach to In-Career Development for Teachers in Ireland, Bournemouth: Hyde Publications, 83-93.

McNiff, J. (1988) *Action Research: Principles and Practice*, London and New York: Routledge.

McNiff, J. (1993) *Teaching as Learning: an action research approach*, London and New York: Routledge.

McNiff, J. and Collins, U. (Eds.) (1994) *A New Approach to In-Career Development for Teachers in Ireland*, Bournemouth: Hyde Publications.McNiff, J., Whitehead, J. and Laidlaw, M. (1992) *Creating a Good Social Order through Action Research*, Bournemouth: Hyde Publications.

Schön, D. (1983) *The Reflective Practitioner*: *How Professionals Think in Action*, New York: Basic Books.

Stenhouse, L. (1975) "*The Teacher as Researcher*" in L. Stenhouse An Introduction to Curriculum Research and Development, London:Heinemann, 142-165.

Whitehead, J. (1993) *The Growth of Educational Knowledge*: *Creating your Own Living Educational Theories*, Bournemouth: Hyde Publications.

Whitehead, J. (1995) "*Educative relationships with the writings of others in Russell, T and Korthagen*", F. Teachers Who Teach Teachers, London: Falmer Press.

Whitehead, J. and Lomax, P. (1987) "The politics of educational knowledge", in British Educational Research Journal 13 (3) 175-190.

أسئلة وأجوبة حول البحث الإجرائي *

مدخل:

الباحثون الإجرائيون يشجعون التغيير عن قصد، وإن أي شكل من التغيير غير مريح ومثير للجدل، وبالتأكيد ستثار بعض الأسئلة عن تصميم البحث ونتائجه.

والتعليقات أدناه هي مقتبسات أو إعادة صياغة لردود أفعال أناس يتحدَّون مفهوم البحث الإجرائي. وإنه لافتراض معقول بأن أي شخص يقرأ هذا الكتاب سيسمع عدة تعليقات خلال مجرى دراسته.

س 1: إن ما تفعله لا يمكن وصفه بـ «البحث» على الإطلاق. بالتأكيد، إنك تفكر في ممارستك وباستمرار تحمل مخزونك، وتبحث عن تحسين أدائك التعليمي، ولكن هذا ما يجب أن يفعله أي معلم جيد على أية حال. هذا ليس بحثاً.

ج: إنك مدرك لنصف ممارستي على الأقل. نعم، إنني باستمرار آخذ ملاحظات وأبحث عن تحسين أدائي، كما تقول. إن ما لا تعترف به، مع ذلك، أنني أيضاً أراقب أدائي بطريقة منظمة وأعلن استنتاجاتي. إنني أتبع ما يدعوه Lawrence Stenhouse بحث منظم «تم تحققه علنياً». إنني أحتفظ بسجلات تفصيلية بما أفعله ولما يفعله تلاميذي. وتلاميذي كذلك يحتفظون بسجلات. إن كل هذه الإثباتات موجودة هناك من أجلك كي تراها وكذلك من أجل أي شخص يريد أن يراها. إن التقرير الثاني لدراستي جاهز الآن. وبالإضافة إلى ذلك، إنني أستطيع أن أرتب لك كي تشاهد الفيديو الذي صورناه منذ أسبوعين. والأحسن، لماذا لا تشرفنا كزائر في الأسبوع القادم؟

س 2: إذن كيف يوصف كل هذا بالبحث؟ إنك أيضاً غير مُسَجل في جامعة.

ج: لا، إنني لا أحتاج ذلك. ربما أن نظرتك عن الباحث الصادق «الشرعي» كانت صالحة قبل عشرين عاماً. إن هناك تأكيدا متزايدا على حركة المعلم الباحث، خصوصاً عبر عمل Lawrence Stenhouse وأتباعه. إن عبارته الشهيرة «استخدام البحث تعني عمل البحث» تقول بأنني مطالب كمعلم أن آخذ نتائج دراسات البحث وأن أختبرها في صفي. فإذا لاءمت وضعي قد أتبناها كما بحسب ما هو ملائم، وإن لم تكن ملائمة، فأنا مؤهل لأن أُجري بحثي أنا على واقعي التعليمي وأن أطوّر نظرية بديلة تستند على تجربتي القائمة على واقع تعليمي أنا، ويتم إعطاؤها المصداقية عبر المشاورة مع الآخرين. وأعني بالمصداقية أن زملائي يتفقون على أن تصريحاتي والإثباتات الداعمة لها مناسبة للموقف، إنها تعني أنني أنوي قول الحقيقة، أنني أصيل كمهني وأنني أختار نمطاً من اللغة نتشارك كلانا فيه. وصيغت هذه النقاط بواسطة Jurgen Habermas

* المصدر: McNiff, Jean. (1998) Action Research: Principles and Practice. Routledge. New York

كمعايير اجتماعية إذا ما كنا أنا وزملائي مانحي المصداقية، وأنت وأنا، نريد الوصول إلى فهم واتفاق عام.

وكمعلم باحث، فإنني غير محتاج للتسجيل في الجامعة. إنه من غير الضروري لي القراءة من أجل درجة عليا، برغم أنني قد أفعل هذا إن رغبت. إن بحثي، المبني على ممارستي الصفية، كل جزئية فيه صالحة كدراسة تعليمية كأيٍ من تلك التي ينفذها الطلاب المسجلون في الكلية.

س 3: ماذا تعني بـ «صادق/ شرعي»؟

ج: ولكن يمكنني القول هنا باختصار بأنني آمل أن أبين بالممارسة أنني أستطيع دعم أي ادعاءات أنا مستعد لصياغتها. وهذه الادعاءات هي حول تحسين ممارستي الصفية، وعن تعليم تلاميذي وعن مفاهيمي الخاصة. وأي نظرية أقدمها سوف ترتكز على الممارسة؛ بمعنى، أننا سنكون قادرين على مناقشة الوقائع التي تجعلني أعتقد بالطريقة التي أعمل بها. إن عملية المصداقية «صدق البحث» تكون عندما نتفق أنت وأنا معا بأن هذه النظريات مبررة. وحوارنا جزء هام من تلك العملية لأنها تجعلنا نفكر بالمبررات. ويجب علي أن أكون اكثر نقدية لنتائجي في مواجهة أسئلتك. والمصداقية لا تعني دائماً الموافقة الجماعية ولكنها تتضمن الوصول إلى فهم مشترك سيعمل كأساس للحوار.

س 4: إنني غير سعيد بإصرارك على أن نوعية بحثك صادقة أو مشروعة. إنني أشك في أن أي جامعة ستفكر بهذا المفهوم.

ج: إن شكوكك كان لها مبرراتها قبل خمسة عشر عاماً مضت. منذئذ والعديد من الجامعات ومعاهد البوليتيكنيك والمعاهد الأخرى لديها مشرفون ومحاضرون وأساتذة متعاطفون ومتحمسون لمبادئ البحث الإجرائي التعليمي. إنني أذكر مثلاً جامعة (باث) و(لانكستر) و(شرق إنجلترا) و(أدنبرة) وبصفة خاصة جامعة (شيفيلد) حيث جين رودوك هي أستاذة التعليم، وفي بوليتكنيك (شيفيلد) يوجد مساق دراسي بعنوان MEd بواسطة البحث الإجرائي. أما بوليتكنيك (كنجستن) وبوليتكنيك (مانشستر) و(كلية باث للتعليم العالي) كلهم يقدمون درجات عليا مع التأكيد على العمل المهني (المطبق) التأملي.

س 5: إذن، إذا ما كنت سأدرس لنيل درجة علمية في معهد للتعليم العالي، وإذا ما كنت سأتبنى البحث الإجرائي كأسلوب، إذن علي أن أسجل في واحد من هذه المعاهد وليس غيرها؟

ج: لا، ليس كذلك على الإطلاق. إن المد ينحسر عن إصرار الجامعات على السيطرة الصارمة على المعرفة التعليمية لفهم المعلمين لممارستهم – بمعنى، دمقرطة البحث. إن هذه الحركة نشطة في معظم الجامعات والمعاهد أيضاً، برغم أنه في هذه اللحظات من الصحيح القول أن العديد من المجموعات القوية ذات المصلحة في داخل المعاهد ذاتها لا تزال تقاوم القبول. وفي النهاية، هي معركة أفكار، إنه صراع سلطة. ولكن بالتأكيد، هاهي حركة البحث الإجرائي أصبحت بارزة في الجامعات والمعاهد في المملكة المتحدة. وإذا ما كنت ترغب في تبني البحث الإجرائي كأسلوب في أي جامعة عليك أن تجد المشرف الذي يفهم هذا النمط من البحث، ويقبلك كطالب. وهذا راجع لك

أن تقوم بالبحث في جامعات الأفراد وتسير الشوط وتتحدث معهم. تذكر بأنك الزبون، والميول الحالية هي نحو بحوث يشكل الزبون البؤرة فيها. وإنك تستحق أن تتوقع استراتيجية داعمة من مرشدك، هذا الدعم الذي يتناسب مع حاجاتك. لا تقبل بيعاً رخيصاً بأن يقنعك بقبول مساق تعليمي مصمم سلفاً. دافع عن حقوقك كمهني مفكر. إن عليك مسئولية اتجاه مُثلك بمتابعتها وتحويلها إلى واقع.

س 6: حسناً. دعنا نتحدث عن ادعائك بالتعميم من عينة مكونة من شخص واحد. إنني أعتقد بأن ذلك غير معقول. بالتأكيد أنني أقبل أنك تستطيع استخلاص تعميمات من عينة من عشرة، عشرين، مائة. ولكن لا تستطيع الادعاء بجدية بأنك قادر على التعميم من فرد.

ج: من حيث المبدأ نعم، أنا افعل. ولكن أعتقد بأننا نحتاج أن نكون أكثر وضوحاً بشأن هذا الحديث عن التعميم. البحث التقليدي معني أولاً بصياغة تنبؤات. وإنها تستند إلى مبادئ علم النبات، بمعنى أنك تقارن بنجاح نبتة بأخرى. والعلماء الذين يؤمنون في هذا النوع من المعرفة المتنبأ بها يطبقون النظرية على الناس. وهم يقولون بأن الناس ستتصرف هكذا وهكذا إذا ما وُضعوا في ظرف مسيطر عليه. وهكذا ينطبق بتساوي على التعلم. ولهذا، واستناداً إلى الظروف المشروطة للتعلم سيكون الناتج شكلاً معيناً من السلوك التعلمي.

إن الباحث الإجرائي لا يرى نفسه كـ « عينة». إنه يتخذ قراراً بفهم العالم من وجهة نظره الخاصة كفرد يدعي الأصولية ويمارس أحكامه الخاصة، قاصداً استخدام مفاهيم من قبل الآخرين إن رغبوا. وسواء أكانت مفاهيمه وأحكامه تمتلك هذا، فإن الإمكانية يمكن أن تظهر في الممارسة من قبل باحثين آخرين يظهرون بأنهم يتبعون مثاله ويستخدمون في حياتهم أشكال الممارسة والفهم التي كان قد قدمها لهم. وبدلاً من رؤية فكرة التعميمية على أنها ملائمة لشكل افتراضي نصي، بمعنى تلك الأفكار التي تقرأ في صفحة أو مصاغة في عبارات بدون سياق من الواقع، الباحثون الإجرائيون يرون التعميمية بمفاهيم أشكال تشاركية من الحياة.

إن كل ما بصدده البحث التقليدي هي النتائج العلمية التي قد تقاس كمياً والاختبارات المزدوجة وتكرار التجارب والتنبؤ بكيفية ما ستؤول إليه البيانات. وكل ما بصدده البحث الإجرائي أيضا هو أناس يشرحون لأنفسهم لماذا يتصرفون على الشاكلة التي يتصرفون بها، وجعلهم قادرين على مشاركة هذه المعرفة مع الآخرين.

س 7: لقد ذكرت كلمة (علمي). إنك تقول بأنك علمي، بمعنى أن أسلوب بحثك الإجرائي بنائي. إنني أقول بأنه مُنشأ لغرض خاص ومضلل ومشوش جداً. هل من الممكن الحصول على بعض الصرامة العلمية من فضلك؟

ج: بالتأكيد. إنك مخطئ في قولك بأنه منشأ لغرض خاص. إن أسلوب بحثي الإجرائي تقويمي كما أنه ديمقراطي ومساند أيضاً. إنه علمي أيضاً وبعيد عن المناسبية. إنني أتبنى كلمة «علمي» لتعني «فعل منظم قائم على فكرة عقلانية». ربما أنك تتبنى كلمة «علمي» لتعني «مُتحكم به». إن فعل بحثي يعتمد على منطق واضح وتحليل إجرائي للنظام التعليمي. إنني أكون فرضياتي

وأختبرها بصرامة على البيانات. إنني استخلص نتائجي وأعرضها للتمحيص والمناقشة العلنيين. إن وحدات تقييمي (بالمعنى الذي أتفحصه) محددة بوضوح، ومعايير أحكامي والأساليب التي استخدمها تختبر بفاعلية على وعبر تجربة الآخرين المنضمين في البحث. إنني أود القول بأن تصميم البحث ليس فقط علمي بصرامة ولكنه يعزز الحاجة إلى مشروعية علنية من قبل باحثين منفردين لادعائهم بالمعرفة أنهم يحسنون نوعية التعليم لأنفسهم وللناس الذين تحت رعايتهم. إنني أفكر مثلاً في كتاب Popper وفي كلمات Peter Medawar الذي يقول بأننا «نروي تلك القصة التي نخترعها وننتقدها ونعدلها ونحن ماضون في القص، حتى تنتهي بأن تكون، قريبة بقدر استطاعتنا إلى قصة عن الحياة الحقيقية».

س 8: عندما قلت بأنك تجري تجربة، توقعت منك أن تمتلك مجموعة ضابطة. ويجب أن تمتلك المجموعة الضابطة التي تستطيع أن تقارن عليها مجموعتك التجريبية.

ج:عندما استخدم كلمة «تجربة» فإنها لا تعني التجريب على الناس. إنني أقصد بالتأكيد إنشاء وضع جديد، وأجرب من خلال الوضع الجديد بالتعاون مع أناس آخرين.

لماذا يجب علي امتلاك مجموعة ضابطة بطريقة ما يستخدمه الوضعيون الجدد للمجموعة الضابطة؟ إنك تفترض أن التعليم قد يدرس بواسطة تقسيمه إلى متغيرات غير مستقلة وأخرى مستقلة. وتستطيع أن تضبط المتغيرات وتختبر النتائج. إن الباحثين الإجرائيين يرفضون هذه الطريقة. إنها غير ملائمة لبحوثهم التي من شاكلة «كيف أستطيع أنا/نحن تحسين نوعية التعليم هنا؟». إنهم يستخدمون شكلاً منظماً من البحث حيث يقوم الباحث بإعلان مشكلته ويتخيل حلولاً ويعمل ويقيم ويعدل مشكلته. إنه يستخدم النقد العلني كمقياس يحاكم مصداقيته وتحليلاته عليه.

س 9:إذا ما كنت باحثة وجب عليك امتلاك بعض الخبرات في مجالك. ومع ذلك فإنك تقولين بأنك لست خبيرةً. وضحي من فضلك؟

ج: إنني لست خبيرة بالطريقة التي ربما تعنيها. ربما أنك تفكر في شخص ما قد جمع كمية ما من المعرفة والمهارات واكتسب خبرة في تطبيقها. إن هذا الشخص مُعترف بأنه «يعرف» أكثر من الآخرين. إنه يتبع مفهوماً شعبياً للمعرفة كسلعة، مثل النقود أو الكعك وهو يملك منها أكثر من الناس الآخرين.

أنا لست خبيرة بهذا المعنى. إنني لا أدعي بأنني أعرف أكثر عن ممارسات زملائي منهم، ولكن لنفس السبب لا تتوقع منهم الادعاء بالمعرفة أكثر مني حول ممارستي. لقد بذلنا جهداً عظيماً لنصوغ ادعاءات حول ممارساتنا التعليمية الخاصة بنا وادعاءاتنا صادقة وجديرة بالاحترام. وتكلم Martin Buber عن تواضع المعلم. إننا متواضعون بمعنى أننا نأتي إلى بحثنا بذاك الشعورمن التوتر الذي لا نعرفه ونحتاج كشفه، ولكن أثناء تقدمنا نطور ثقة في ممارستنا كمعلمين وباحثين معاً.

ليست لدي النية في فرض مصطلحاتي على الآخرين، إلا أنني مستعدة للدخول في حوار معك.

وبالنسبة لي فمن أجل توليد شكل عام من النظرية التعليمية فإنني محتاجة إلى مساعدتك على جعل المعرفة الباطنة ظاهرة هذه المعرفة التي تبطن ممارستك الكفؤة. بهذا المعنى نحن نحتاج بعضنا الآخر كمهنيين كفؤين سيعملان بتعاون لمحاولة تحسين الممارسة ولتطوير فهمنا لعملية تحسين الممارسة. في بحثي لا أجري بحثاً على الآخرين. إنني أدرس تطوري التعليمي الخاص بي أثناء محاولتي تحسين نوعية التعليم مع طلابي.

س 10: يبدو كأنك تقيسين تقدم طلابك. ومع ذلك، فإنني لا أرى اختباراً قبلياً أو اختباراً بعدياً. كيف تقيسين أي شيء بدون مقاييس محددة؟

ج: لا، إنني لا أقيس بهذا المعنى. إنه مفهوم خاص بالبحث التقليدي المفسر عبر نتائج كمية. إنني لا أقيس لأنني أفسر استنتاجاتي بمصطلحات النوعية بدلاً من الكمية. وإذا ما شعرت بأن بعض الاختبارات ستكون مؤشرات مفيدة إذن بالتأكيد سأستخدمها. إنني لا أرفض أية مصادر بعيدة عن يدي، ولكن بدلاً من ذلك أقيم إمكانياتها وأستوعبها إذا ما كانت واعدة. فمثلاً بعض الاختبارات القياسية للقراءة قد تكون مفيدة، واختبارات الاتجاهات – ولكنني سأستخدم النتائج الإحصائية فقط كمؤشرات لمزيد من البحث في هيئة بحث إجرائي. وكباحث إجرائي فإنني أسعى إلى الشرح والتحسين أكثر من الوصف فقط. والاختبارات القائمة على الإحصاء ستصف لي الوضع كما هو بدون أخذ اعتبار للعوامل الاجتماعية والشخصية التي تجعلها هكذا. وهي أيضاً تقف عند حد هذا الوصف. إنه بحثي الإجرائي الذي سيقودني إلى الأمام لتطبيق النتائج في جهد لتحسين نوعية التعلم. إنني سأستوعب مثل هذه الأدوات الإحصائية في خطة بحثي الكلية إذا ما شعرت بإنها تقدم إضافة ولكنني لن أعتبرها مطلقاً كأساس.

لذا لا يدخل «القياس» في القضية. إن ما أفعله هو ملاحظة أين الموقف التعليمي الآن (ما الذي يفعله التلاميذ ويفكرون به، وما الذي تهدف إليه ممارستي)، محاولاً أن أدفعه إلى الأمام ومسجلاً الفعل الفوري في محاولة لتفسير الانتقال إلى الأمام. و«المقياس» الذي أطبقه، أعني معاييري للحكم، هي تلك التي تمت الموافقة عليها من قبل مانحي المصداقية للبحث، وذاتي بأن تقدماً قد حدث. فمثلاً سننظر إلى الإثباتات (أشرطة فيديو وتسجيل، قلم وورق)، وإلى معايير الموافقة التي ستبين الانتقال (بأن الأطفال أكثر طلاقة في دروس الإنجليزية، وأنهم قد تفاعلوا أكثر في تعلم نشط في الفيزياء، أن يوجد جو أكثر ديمقراطية في لقاءات الموظفين إلخ). ونحدد أمثلة معينة لتوضيح تلك المعايير في الفعل (سوزان وبليندا تتحدثان عن مناقشتهما إلى الصف بينما لم تستطع أي منهما منذ ثلاثة أسابيع مضت قول كلمة علانية؛ (سايمن) يشرح كيف أنه اكتشف أن الهواء يزن شيئاً ما؛ صوت السيدة (براون) بشأن المعارضة تلقى استماعاً لطيفاً في لقاء الموظفين يوم الاثنين بدلاً من أن يغرق في سيل من التأوهات). تلك هي الطرق التي أستطيع بها كباحث أن أصوغ ادعاء بأنها أفضل حكم على ممارستي التعليمية. إنني لا أقيس بالمعنى التقليدي. إنني أختبر وأقيم وأحكم بالتعاون مع زملاء «المصداقية» فيما إذا ما قدمت إضافة في تحسين نوعية التعليم أم لا.

س 11: إن بحثك بحث ذاتي. بياناتك، مصادرك، حتى مواضيعك، منتقاة ومدركة ومفسرة من جانبك. كيف يمكنك الادعاء بالموضوعية؟

ج: إنني أوافق بأن مصادري الأصلية ذاتية كما تقول. أنا حددت مشاكلي التعليمية الخاصة، أنا تخيلت حلولي، وضعتها في التطبيق وراقبتها، وأنا أعدت تقييم المشاكل، وأنا تحدثت بكثافة مع زملائي المؤازرين الذين وعدوا بدعم البحث في جميع مراحله. عندما قررت تطبيق الحلول المتخيلة أخبرت صفي بماذا كنت آمل عمله. إنني دعوتهم لأن يصبحوا باحثين معي في ممارستهم. وأنا راقبت ممارستي وحركة التلاميذ. أنا جعلت تقارير التقدم المنتظمة للتلاميذ وأولياء الأمور والزملاء ملمحاً من ملامح البحث. إنني طالبت بتعليقات التلاميذ حول تقدمهم وكيف يمكن رفع مستوى الوضع التعليمي أكثر، وأسندت فعلي المستقبلي على مقترحاتهم .

إنني أوافق بأن بحثي ذاتي. وهكذا بحث التلاميذ والآباء والزملاء. كلهم جميعاً يراكمون، وعبر نقد ذاتي تبادلي فإنهم يزيدون موضوعيتهم. لنضع الكلام بطريقة أخرى: إذا قلت «الجو بارد الليلة»، رأيي الذاتي، وأنت تقول «الجو بارد الليلة»، رأيك الذاتي، فنحن الاثنين، نتفق على ذاتي كل منا المنفرد، فنحصل على عبارة إيجابية موضوعية مفادها: «الجو بارد الليلة». يشمل البحث الإجرائي أناساً آخرين، جميعهم يطبق معرفته الشخصية الذاتية بطريقة ناقدة. وإذا ما اتفقوا جميعاً إذن من الممكن الادعاء بالموضوعية.

ومع ذلك فالموضوعية ربما لا تكون معياراً حاسماً. هل يهم إذا ما كان بحثي ذاتياً؟ إنني أعرف ما أعرفه. في رأيي، المعرفة الأكثر حسماً للمعلمين هي حدسهم، المعرفة الباطنة. يتكلم Michael Polani عن المعرفة الشخصية كأنها الهبة الأثمن في حياة الإنسان. وربما أن الهدف الأول للبحث الإجرائي أن يعطي لفكرة المعرفة الشخصية التقدير الذي تستحقه، ليشجع المعلمين على الاعتماد أكثر على معرفتهم الباطنة كأساس لممارسة حكيمة ومعتبرة. كثيراً ما يجيب التلاميذ عندما يسألون عن أسباب لماذا هم يفكرون كما يفكرون بالقول «إنني لا أستطيع أن أشرحها. إنني أعرف فقط». وربما كمعلمين ينبغي علينا أن لا نحاول الدفاع عن معرفتنا الحدسية كثيراً جداً. ولكن أن نعطيها وضعاً موضوعياً عبر نقد ذاتي متبادل.

س 12: أين يأتي وضع البحث الإجرائي بين الأنشطة الأخرى التي ينفذها المعلم. بالتأكيد إنك لا تدعي بأنه إجابة لكل المشاكل التي نجابهها من يوم إلى آخر في المدرسة؟

ج: لا، إنني لا أدعي. فكما هو الأمر مع كل شيء هناك وقت ومكان للبحث الإجرائي. وبحد علمي فإن أهم وظيفة للمعلمين هي إقامة علاقات مساعدة، والعمل باتجاه تأسيس جو من الألفة والرعاية ينمي تلك العلاقات. إنني ضد فكرة التعليم كشيء مدرسي. إنني مع فكرة أن المدرسة هي مكان للمساعدة في تنمية تعلم الأفراد ذاتياً ومترابطين. ويعلق Whitehead أيضاً قائلاً «إن أغلب ظروف التعليم تحتاج إلى علاقات من الألفة والرعاية لتحسينها. إن هذه الصفات أكثر أهمية من استخدام شكل منظم من البحث .

ومع ذلك، فتشجيع هذه الاتجاهات رهن بمهارات المعلم. هذه العلاقات ذات طبيعة شخصية

واجتماعية. بعض الناس يبدو أنهم يمتلكون موهبة لكيفية أدائها. وبالنسبة لآخرين ليست سهلة أيضاً. إن هناك حاجة عظيمة للمؤازرة الضرورية أثناء الخدمة للمعلمين من أجل تطوير نوع مناسب من الخبرة الشخصية المتبادلة التي تجعلهم قادرين على رؤية التعليم في ضوء علاقات فرد لفرد بين الأشخاص المهتمين ببعضهم، وأن ذلك سيساعدهم على إقامة تلك العلاقات.

إن الإضافة القيمة التي يقدمها البحث الإجرائي لهذه الطريقة في التعليم أنه يشجع على أخذ معرفة دقيقة بما يجري، وكيفية تحسين الوضع التعليمي. وبهذا المعنى فإن هذه الإضافة قد تكون أداة تشخيصية وتقييمية مفيدة. إنه في ذاته، مع ذلك، لا يعلم كفايات محددة. إنه يساعد المعلم على الانكباب على المشكلة ومحاولة إيجاد الحلول، إلا أنه في ذاته لا يفتح العقول. إن تطوير المهارات الشخصية المتبادلة تحتاج مؤازرة وإرشاداً معيناً من قبل المعلمين للمعلمين. هذا في ذاته سيساعد المعلمين ليقرروا فيما إذا كان البحث الإجرائي استراتيجية مناسبة أو إذا ما كانت هناك طرق أخرى مناسبة أكثر.

س 13: حسن جداً، إنني أقبل كل ما تقوله كمؤشر على مسعاك النبيل. إنني سأستمع بتعاطف إلى مزيد من التفسيرات للبحث الإجرائي، وربما أنني سأجربه لذاتي. ولكنني لا زلت اقف عند نقطة هامة. إن جميع هذه التطويرات التي توضح بأنها قد حدثت، لكنها قد تكون حدثت بدونك. ربما أنها كانت في السياق مسبقاً، وربما لم يكن لتدخلك أي علاقة بها على الإطلاق.

ج: حقيقي، ولكن المهم أنها حدثت معي. علاوة على ذلك، يمكنني أن أريك إثباتات على شريط الفيديو والتسجيل وفي سجلات مكتوبة من قبل الطلاب والزملاء المشاركين ومن قبل مجموعة منح المصداقية. إنني أستطيع القول بأن التقدم في نوعية هذا الوضع التعليمي المحدد نتجت بسبب تدخلي الأساسي كباحث إجرائي. ومن ثم فإنني سأطلب منك مشاهدة العمل قبل الدراسة والعمل حالياً وأطلب إليك أن تحدد معي معايير الأداء التي نتفق معا بأنها تبين التقدم الذي تتحدث عنه، ومن ثم نوضح اللحظات الحاسمة في الإثباتات التي هي أمثلة لتلك المعايير في العمل. ومعا سنعمل باتجاه فهم تطبيقي في بحثنا التعليمي لتأكيد أن تدخلي كان حاسماً. بهذه الطريقة، نصبح أنا وأنت متعاونين في بحثي التعليمي. نحن نلاحظ ممارستنا ونتفق على نظرية مشتركة بيننا لتلك الممارسة.

إننا بمباشرتنا بحثنا المنفصل نرجع إلى نقطتك الأصلية المتوقف أنت عندها، أي أن التطويرات ربما كانت قد حصلت بدوني. تأمل: لو أنك لم تتحدَّ فكرتي بدايةً، ولو أن دراسة بحثي الإجرائي لم توجد لتحفزك على طرح هذه الأسئلة عليَّ، هل كان التقدم في تفكيرك سيحدث؟ أما كنت ستظل في نفس المكان كما كنت عند البداية من مناقشتنا؟ وكما هو الحال، فإنك قد أصبحت باحثاً إجرائياً مثلي. حتى فيما لو كنت لم تقتنع بكل ما قلته، إنك قد استمعت، وحوارنا أطلق أفكاراً جديدة في عقلك. لقد ابتدعنا خلال محاورتنا أفكاراً جديدة وبدايات جديدة.

المواد الواردة في هذه الكراسة مترجمة عن الإنجليزية وهي مقتبسة من الكتابين التاليين:

1- Action Research: Principles and Practice McNiff Jean

2- You And Your Action Research. McNiff, J; Lomax, P & Whitchead,J